اقرأ

على أدهم

الجمعيّات السّريّة

دار المعارف بمصر

الجمعيّات السِّرّيّة

علي أدهم

الجمعيات السرية

اقرأ ١٣٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٣٨ – أول يونيو ١٩٥٤



مقدمة

لعبت الجمعيات السرية دوراً هاماً فى تاريخ البشرية ، وأثّرت تأثيراً عظيم الخطر بعيد المدى ، وكانت فى بعض الأحيان أداة هائلة من أدوات التغيير والإصلاح والبناء ، وفى أحيان أخرى كانت وسيلة من أقوى وسائل الهدم والتدمير ، أو هز أركان المجتمع وزعزعة رواسيه ، وتفكيك روابطه ، وساعدت فى بعض الأحيان الأهداف الكبيرة ، والغايات المثلى على التحقيق والظهور والغلبة والانتصار ، وفى أحيان أخرى جلبت المصائب الكبيرة وكانت سبباً فى وقوع الأحداث الجليلة ، والجرائم المنكرة ، والحماقات والسخافات ، فليست هى خيراً خالصاً ولا شراً محضاً ، وإنما هى مزيج من الخير والشر ، وقد يتغلب فيها عنصر الخير والإصلاح ، وقد يعلو فيها باعث الشر والإفساد ، وقد تكون مجالا للإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة ، وقد تكون مسرحاً للدجل والغش والخداع .

وللجمعيات السرية سحر خاص وجاذبية قوية ، تهفو بنفوس فريق من الناس ، وتستميلهم وتستأثر بأهوائهم ، وتبلغ منهم مبلغاً يدفعهم إلى المخاطرة والمجازفة والإتيان بغرائب الأعمال ،

وقبول الطاعة العمياء ، والاستسلام المطلق ، والواقع أن فى الكتمان والسرية والخفاء والغموض ما يستهوى الخيال بوجه عام ، ويطلق الأوهام والأحلام ، وكلما كان السر أدق وأخفى وكان اللغز أعوص وأغمض كان سحر الخفاء أشد جاذبية وأقوى إطلاقاً للخيال ، وما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعاً بالغرائب والعجائب ، محباً لاستطلاع الأسرار وكشف المخبآت واستجلاء الغوامض . ويعرف أصحاب الصحف والمجلات هذه النزعة الإنسانية الغلابة القاهرة ، فيطالعون القراء الفينة بعد الفينة بغرائب الحوادث ومدهشات الأخبار ، حتى إذا ما نضب معينهم ولم يواتهم القدر بالقدر اللازم من الحوادث المثيرة والخفايا المحجبة والأسرار المغيبة ، عمدوا إلى الاختلاق والتلفيق فى بعض الأحيان ، واستعانوا بأخبار الجن والشياطين والعفاريت على إثارة حب الاستطلاع ، وميل الناس إلى ما يتجاوز حدود المألوف والمعهود ، وقد يبالغون فى الحادثة البسيطة والأخبار العادية ويضخمونها ويهولون بها ويخلقون من حبتها قبة ، ويضفون عليها الأوصاف البراقة المثيرة ، والنعوت المحيرة للألباب ، حتى تغدو الحادثة المبتذلة الخلقة كأنها شىء فذ نادر قادم من عالم الظلام ، ودنيا الغيب والخفاء والأسرار ، ويعتقد الصحفيون البارعون أن القراء يريدون بباعث خفى صادر من أعماق نفوسهم ما يوحى

المجهول ، ويشعر بالغرابة ، وينقل الإنسان إلى ما وراء الحياة اليومية الدارجة المملولة ، وينحو نحوهم وينسج على منوالهم كتاب القصص والروايات التى تدور حول الجرائم الخفية ، وإماطة اللثام عن الأسرار ، وإعمال الفكر فى استنباط الحيل وإحكام الشباك ، ويجد كتاب هذه القصص المجال متسعاً أمامهم ، فيبتكرون الألغاز ، ويثيرون المشكلات ، ويحتفظون بالسر الدفين فلا يكشفونه إلا فى آخر القصة ، وكلما كان حل اللغز أكثر اعتياصاً وأشد استعصاء كانت القصة أمعن فى التسلية ، وأبلغ فى التشويق ، وأكثر ابتعاثاً للنشاط والارتياح ، وهذا النوع من القصص يجد على الدوام إقبالاً ورواجاً ، حتى بين طبقة المثقفين ثقافة عالية ، والذين أوتوا العلم الواسع والمعرفة الغزيرة ، وقد حدثنا برتراند رسل أشهر فلاسفة البريطانيين فى العصر الحاضر عن ولعه بأمثال تلك القصص فى أحد فصول كتابه عن « السلطة والفرد » .

والجمعيات السرية تضيف إلى هذا الولع البدائى بالمجهول جاذبية أخرى ، فهى تمثل لنا قوة غير معروفة ، ومصدر هذه القوة هو جماعة من الأفراد قد اجتمعوا ليقوموا بعمل يعجز عن القيام به الفرد بنفسه ، وقد يكون هذا العمل خيراً وقد يكون شرًّا ، ولكنه فى الحالين يتسم بميسم السر ، ويلحق بعالم الخفاء .

والوسائل التى تتخذها الجمعية قد تبدو صالحة نافعة ، وقد تظهر ضارة هدامة ، فأنصار النظام القائم يجدونها ضارة مؤذية ، والناقمون عليه المتبرمون به يعدونها صالحة مجدية ، ورجالها فى رأى فريق من الناس طلائع عهد جديد ورواد فكرة مستحدثة ، وفى رأى فريق آخر هم مجرمون هدامون ، لا مفر من قطع دابرهم ، والقضاء عليهم ، ليستريح المجتمع ويأمن الناس .

ومن المشاهد الملحوظ أن الجمعيات السرية تكثر وتعم حيث تضطرب الحياة الاجتماعية ويسود الطغيان والاستبداد ، والضيق والحرمان ، ويشعر الناس بحاجة ماسة إلى مقاومة الطغيان والانتقام من الظالمين ، ومو جدو هذه الجمعيات لهم غرض يتوخونه ويعملون على تحقيقه ، وقد يكون هذا الغرض إنسانياً سامياً ، وقد يكون إجرامياً وضيعاً ، ولكن السرية والخفاء والتستر والإبهام سرعان ما تجتذب إليهم الأنصار والمؤيدين والأتباع والأشياع ، وتختلف البواعث التى تهيب بهؤلاء الأنصار إلى الاندماج فى الجمعية والانخراط فى سلكها ، فمن الناس من يستميله حب السيطرة والطمع فى السلطة والنفوذ والتمجد والاستعلاء ، ومن الناس من يؤثرون العمل فى الخفاء والإدلاج فى السواد ، ويجدون فى ذلك مجالا لإظهار قدرتهم وكفايتهم ، والكشف عن مواهبهم وملكاتهم ، وبعض الجمعيات السرية ترمى منذ إنشائها إلى

أغراض شريرة فاسدة ، وبعضها يرمى فى بدء تأسيسه إلى أغراض نبيلة ، ولكنها سرعان ما تنحرف عن طريق الخير ، وتنزلق إلى الشر ، ويصبح هدفها الإجرام والإرهاب ،

وفى بعض الناس ما يصح أن نسميه « عقدة الجمعيات السرية » ، وأمثال هؤلاء يعزون كل شيء إلى تأثير الجمعيات السرية والحركات الخفية ، وهم يتصورون أن هناك مؤامرة كبرى مخبأة مبيتة لهدم الحضارة والقضاء على الآداب ، وهم يعزون إلى القائمين بأمر هذه المؤامرة أبعد الخطط إغراقاً فى الخيال ، وإمعاناً فى الظنون والأوهام ، وقادة هذه الجمعية المتوهمة قوم مجهولون بطبيعة الحال ، ولكن قوتهم غير محدودة ، وهم خلف كل حركة هدامة ونزعة ضارة ، ومثل هؤلاء الناس حينما يتحدثون عن ثورة كالثورة الفرنسية ، لا يقتنعون بما كتبه عنها أمثال منييه ، ومشليه ، وتين ، وكارلايل ، وأضرابهم من المؤرخين الأثبات الثقات ، لأن هؤلاء فى رأيهم لم يصلوا إلى سر الثورة الخفى ومدبريها المجهولين ؛ وعندهم أن موجدى الثورة هم أفراد هذه الجمعية السرية الهدامة التى تبث سمومها خفية ، وتنصب شباكها دون أن يعلم أحد ، والأسباب التى اعتاد المؤرخون أن يذكروها فى تعليل حدوث الثورة الفرنسية لا ترضيهم ولا تقنعهم ، بل هى فى نظرهم أسباب سطحية لا تقدم ولا تؤخر ،

أما السبب الحقيقى والعلة الخفية فهو سعى هؤلاء الهدامين المستورين أفراد الجمعية السرية التى تعمل منذ عهد عهيد على تقويض الحضارة ، ومحو الأديان ، وهدم القوميات ، وإسقاط الدول والإمبراطوريات ، وهم يفسرون التاريخ وحركاته على هذا النمط العجيب على الأقل فى رأيى واعتقادى !

ولا نزاع فى أن الجمعيات السرية التى ظهرت فى التاريخ كثيرة متعددة ، وأكثر الحركات السياسية التى يقوم بها المظلومون والمضطهدون أو الذين يشعرون بأنهم مظلومون ومضطهدون ، يغلب عليها مجانبة الجهر والصراحة ، والطرق القانونية المشروعة ، والالتجاء إلى التستر والاستخفاء ، كما أن معظم الأحزاب السياسية العلنية لها أسرارها الخفية ودخائلها الدفينة وأهدافها المستورة المحجبة ، التى لا يعلم دقائقها سوى قادة الحزب وزعمائه .

والجمعيات السرية تكاد تكون فى الواقع مؤامرة مطبوعة بالطابع الأرستقراطى ، وقد أخذت على أعضائها العهود المبرمة والمواثيق المؤكدة ، وفرض عليهم التزام الصمت وإطاعة الأمر ، وهم ينزلون على أمرها ويرتضون حكمها ، إما بدافع من الفكرة التى ملكت عليهم نفوسهم ، وإما بدافع الرهبة والخوف من الانتقام والتنكيل ، ويحرص الأعضاء البارزون فى تلك الجمعيات

على بسط سلطان الجماعة والتكثر من الأنصار والأعوان ، والمساعدين الصادقين النافعين المجربين ، ولكنهم يحرصون فى الوقت نفسه على أن يظل لهم الصدر والكلمة المسموعة والرأى المطاع والتقدم والأسبقية ، ولذلك يستمسكون بنظام خاص من نظم الطبقات ، لا يعرف سره إلا الزعماء والرءوس ، ولقد وجدت دائماً جمعيات سرية مكونة من خلايا مختلفة متعددة ، ولا يعلم أفراد الخلية الواحدة شيئاً عن أفراد الخلايا الأخرى ، ويحسبون أنهم وحدهم أعضاء الجمعية ، وتتبع هذه الجمعيات نظاماً دكتاتورياً ، وتجعل من أهدافها مبدأً يدق فهمه على الأعضاء العاديين ، ولا يفقه سره إلا الفئة القليلة التى تدبر الخطط وتضع المناهج ، ولذا يشاهد أن الحركات التى ترمى إلى أغراض دمقراطية محضة لا تميل فى العادة إلى اتخاذ الأساليب السرية ، ولكن القائمين بتلك الحركات الدمقراطية النزعة قد يضطرون إلى اصطناع الأساليب الخفية حينما تخفق الأساليب الشرعية العلنية ، وتمتاز الجمعيات السرية التى لها هدف معين بالتحمس الشديد لتحقيق هذا الهدف والإخلاص له والتفانى فى سبيله ، ولو أن الرغبة فى إثارة الدهشة والتعجب وإحداث الضجة المدوية قد تلعب دوراً هاماً فى أعمال أعضائها ، وتستأثر بنصيب وافر من جهادهم ، ومتى ظفروا ببغيتهم بطلت الغاية من وجود

الجمعية ، وانحل عقدها وانفرط نظامها ، وبخاصة حينما يكون غرضها الأصيل سياسياً محضًا ، ولا لزوم للالتجاء إلى السرية حينما يمكن اتباع الأساليب المشروعة ، وإلى أن يحدث هذا يقبل على الجمعية قوم مختلفو النزعات ، متباينو الأمزجة والمشارب ، وليس أدخل فى الخطأ من الاعتقاد بأن الجمعيات السرية — مهما كانت أغراضها — مكونة من رجال متشابهى الأخلاق والنزعات والعقول والأفهام ، وربما كان هناك عقلية خاصة يمكن أن نسميها « عقلية الجمعيات السرية » ، يشترك فى بعض سماتها من يميلون بطبيعتهم إلى الدخول فى أمثال تلك الجمعيات ، ولكن إذا تجاوزنا هذه الصفة المشتركة ، وجدنا الجمعيات السرية تضم أقواماً مختلفى الألوان والاتجاهات ، ففيها المثاليون المخلصون ، والأبطال المقاديم ، والفدائيون الخلص ، والمتعصبون المسرفون فى تعصبهم ، والبله المغفلون ، والأغرار المندفعون ، والمغامرون القساة الأفظاظ ، والنفعيون الأنانيون ، والمتشككون الذين لا يؤمنون بشىء ، والدساسون الأفّاكون ، والخونة المارقون ، وأكثر هؤلاء يستشعرون السرور لأنهم يعملون فى الظلام ويستهدفون لأخطاره ، ويجدون فى ذلك متعة لا تعدلها متعة ، والذى يلفت النظر فى أعمال أمثال هذه الجمعيات السرية ، أنها قد تنم على ضروب من الشجاعة والإقدام لا تكاد

تصدق ، وتأتى بأمثلة من إنكار الذات ليس لها نظير ، ولكن الغريب أنها قد تفعل ذلك كلّه من أجل مذهب فاسد . وفكرة منحرفة ، وغاية مسفة ، ليس لها سند من حسن الإدراك وصحة التقدير ، ولا من فهم سنن الكون وطبائع الأشياء ، وفى بعض الأحايين تصبح أمثال هذه الجمعيات السرية وباءً يجب إبراء المجتمع من عقابيله ، واستنقاذه من آفاته وعلله ، وتخليصه من أوزاره وجرائمه ومنكراته ، والكثيرون من أعضاء هذه الجمعيات يقبلون عن طيب خاطر أن يضعوا عقولهم وإرادتهم وحياتهم تحت تصرف زعيم مجهول ، قد لا يعرفون صورته ، ويجهلون أخلاقه وسيرته ، وقد يكون هذا الزعيم المستتر المحجوب رجلاً دعياً دجالاً خبيثاً لئيماً وغداً ، يستغل تحمسهم من أجل أغراضه الوضيعة ، ومطامعه ولباناته ، وقد كان الباعث على تأليف بعض الجمعيات السرية المعروفة فى التاريخ على جانب من السمو ونبل الغاية ، ولكن هذه الجمعيات مهما سمت غايتها فإن طبيعة التآمر والتزام التخفى والتستر والعمل فى الظلام تطبع عقول أفرادها بطابع الضيق والتعصب ، وتميل بهم إلى الإجرام والقسوة والإرهاب ، والتآمر بطبيعته إعداد للثورة وتهيئة للانقلاب ، فهو بطبيعته هدام ، ومتى تكونت العقلية السرية المتآمرة عظمت الغاية فى نظر أفراد الجمعية وجلّت ، وهانت الوسيلة وتضاءلت ،

واستهوت الجمعية إلى الانضمام لصفوفها ذوى الأذهان الملتوية ، والعقول المنحرفة والخياليين المفتونين والميالين بطبيعتهم إلى الدس والتآمر والإجرام ، ومن ثم فإن أمثال هذه الجمعيات إذا صادفها التوفيق وحققت أهدافها قلَّ أن يظهر بين رجالها قوم من أصحاب النظرة المستقيمة الواسعة ، والآراء النيرة السليمة المتسامحة ، ولذلك تعجز عن استثمار نجاحها ، ويمقت الناس سَياستها ، ويضيقون بها ، لأنها لا تقوم على الصراحة والمكاشفة والوضوح ، وإنما تعمد إلى المراوغة والمواربة واللف والدوران والتكتم والحذر وسوء الظن .

والجمعيات السرية قد نشأت فى مختلف العصور وشتى الأمم ، وهى قديمة قدم الحضارة نفسها ، وقد كان للكثير من الأديان القديمة أسرارها الخفية وطقوسها وشعائرها وحفلاتها وتعاليمها التى يتلقاها الداخلون فيها ، وفى خلال القرن التاسع عشر كثرت الجمعيات السرية كثرة ملحوظة ، وكان لمبادئ الثورة الفرنسية وظهور مبدأ القوميات أثر واضح فى تكوينها وإنشاء برامجها . والتيارات الفكرية الجديدة تساعد على وجود الجمعيات السرية وتمهد لها ، وقد كان لحركة الإصلاح الدينى فى أوربا وظهور مارتن لوثر أثر فى نشوء بعض الجمعيات السرية فى ألمانيا ، وكذلك كان لأفكار أصحاب الموسوعة وآراء روسو ،

وڤولتير ، أثر فى ظهور الجمعيات السرية فى فرنسا .

وأساليب الجمعيات السرية فى شعائرها ومراسيمها ورموزها وخفاياها تكاد تكون متشابهة . ولا نزاع فى أن بعض الجمعيات السرية قد استعارت شاراتها ورموزها ونظام محافلها واجتماعاتها من جمعيات أخرى تقدمتها ، ولكن الاستعارة والاقتباس والتشبه والمحاكاة ليست وحدها سبب هذا التشابه والتقارب ، وإنما سبب ذلك تشابه العقلية النزاعة إلى الجمعيات السرية .

وتاريخ الجمعيات السرية مثير للخيال حافل بالطرائف والعجائب ، ونلمح فيه حيناً الأمثلة الممتازة من الجرأة والإقدام ، وحيناً آخر نرى فيه الأدلة الواضحة على قسوة الإنسان المتناهية فى معاملة أخيه الإنسان ، وتقديره والحكم على أعماله ، وقد كانت الجمعيات السرية فى بعض الأمم عاملاً هاماً من عوامل حياتها السياسية والاجتماعية ، فالجمعيات التى كانت تتوارى فى غياهب السرية بالأمس ، قد تصبح اليوم صاحبة الأمر والنهى وقابضة على أزمة الحكم ، وقد كانت الشرارة التى أشعلت نيران الحرب الكبرى الأولى هى طلقات الرصاص التى وجهها

الطالب الصربى « جاڤريلو برتنسيب » إلى الأرشيدوق فرانتز فرديناند وريث العرش النمساوى فى سراجيفو عاصمة البوسنة ، وكان هذا الطالب عضواً فى جمعية اليد السوداء الصربية ، يتلقى وحيها ويعمل بإشارتها ، وقد أمرته الجمعية بارتكاب هذه الجريمة الشنعاء ، ومهدت له سبيلها ، ودفعته إليها دفعاً ، وقد رنّ صدى هذه الطلقات فى جميع أرجاء العالم ، وعجلت بوقوع الحرب العالمية الأولى . وهتلر نفسه كان من رجال الجمعيات السرية التى وصلت إلى الحكم ، وواضح أن مثل هذه النشأة كان لها أثرها فى وقوع الحرب العالمية الثانية ، وقد كان للعوامل السرية أقوى أثر فى ظهور الدولة العباسية فى المشرق ، والدولة الفاطمية فى المغرب ، فإن كان الإصلاح والخير والتقدم يجىء فى بعض الأحيان عن طريق الجمعيات السرية ، ففى أحيان أخرى كثيرة ملحوظة لا يجىء عن طريق أمثال هذه الجمعيات سوى الشر والوبال والدمار ، مهما سمت غايتها فى بادئ الأمر ، ومهما أظهر أعضاؤها من ضروب الشجاعة والإقدام وإنكار الذات .

والجمعيات التاريخية التى عرفها التاريخ كثيرة متنوعة ،

وليس من همى فى هذا الكتاب الموجز إحصاؤها واستقصاء تاريخها ، وقد اجتزأت بتخير بعض الجمعيات السرية المشهورة وتحريت فى الاختيار التنويع والدقة فى عرض الحقائق التاريخية والتزام الحيدة والنزاهة .

طائفة الإسماعيلية النزارية

في سنة ٤٨٣ هجرية استولت طائفة الإسماعيلية النزارية على ذلك المعقل الأشب والحصن المنيع المعروف باسم قلعة آلموت ، فقويت شوكة هذه الطائفة ، واستغلظ أمرها ، وتفاقم خطرها ، وقطع أتباعها طريق القوافل ، وأسرفوا فى قتل السابلة ونهب الأموال ، وأصبحوا دولة باغية معتدية فى داخل الدولة ، واضطر سلطان السلاجقة فى ذلك العهد — وهو السلطان ملكشاه — إلى أن يفكر تفكيراً جدياً فى استئصال شأفة هذه الطائفة وقطع دابرها ، ورأى قبل الشروع فى ذلك أن يوفد إليهم رسولا يحمل إليهم رسالة يدعوهم فيها إلى الطاعة والكف عن إيذاء رعيته ، وقد سار الرسول من أصفهان وأخذ فى اختراق السهوب وقطع المفاوز وتوقل الهضبات وهبوط الأودية فى ذلك الإقليم الوعر المسلك الواقع فى جنوب بحر قزوين والمسمى رودبار ، حتى بلغ تلك القلعة الشماء الواقعة فى سلسلة جبال البرز ، وقوبل الرسول بالحفاوة والترحيب ، واستقبله الحسن بن الصباح زعيم الطائفة ورأسها المفكر وعقلها المدبر ، وهو فى ثيابه

البيض ، وقد حف به جماعة من أصحابه فى ثيابهم البيض ، وأحذيتهم الحمر متنطقين بأحزمة أرجوانية ، وفض الحسن غلاف الرسالة الملكية ، وعلم فحواها ، وطاف بالرسول فى بعض حصون القلعة ، ثم التفت إلى الواقفين بين يديه الحافين به وقال « أريد أن أنفذكم إلى مولاكم فى حاجة ، فمن ينهض لها ؟ »

فاشرأب كل واحد منهم لذلك ، وظن الرسول أنها رسالة يحملها إياهم ، فأومأ إلى شاب منهم وقال : « اقتل نفسك » فما كان من الشاب إلا أن جذب سكينة وضرب بها غلصمته فخر ميتاً ، وقال لشاب آخر « ارم بنفسك من القلعة » فألقى الشاب بنفسه من القلعة دون تردد ، فاندق عنقه وتكسرت أضلاعه فوق الصخور ، والتفت الزعيم الرهيب إلى الرسول الذاهل المتعجب ، وقال له فى هدوء وطمأنينة : « قل لمولاك إن عندى عشرين ألفاً هذا حد طاعتهم » ، وعاد الرسول وأخبر ملكشاه . فعجب من أمرهم ، ولكن السلطان ملكشاه كان رجلا قوى الشكيمة ، رابط الجأش ، لاتلوى حرب الأعصاب عزمه ، ولا تكسر إباءه ، فجرد جيشاً جراراً للاستيلاء على القلعة والقضاء على الحسن الصباح وعصبته ، ولولا أن المنية عاجلته لاستطاع على الأرجح أن يحقق غايته ويظفر بأمنيته .

على أن سلاطين السلاجقة لم يكونوا جميعهم من معدن

السلطان ملكشاه ، ولم يكن لهم كلهم مثل رزانته وثباته ، فقد أراد السلطان سنجر – أحد خلفاء ملكشاه – أن يقاوم نفوذ الحسن الصباح ، وحاول حصار قلعة آلموت ، وشدد عليها النكير ، وحاول الحسن من ناحيته أن يثنى عزم السلطان ، فلما عجز عن إدراك بغيته لجأ إلى الخداع والإرهاب وحرب الأعصاب ، فتمكن من إغراء بعض خدم السلطان بغمس خنجر بالقرب من سرير السلطان سنجر ، فلما استيقظ السلطان ارتاع وانتابته المخاوف والأوهام ، وأتبع الحسن ذلك برسالته هدد فيها السلطان قائلاً : « إن من يستطيع أن يغمس ذلك الخنجر فى الأرض الصلدة يسهل عليه أن يغمسه فى صدر السلطان » ، فاهتز قلب السلطان هلعاً أمام هذا التهديد ، وتراجع عن حصار آلموت ، وعقد اتفاقاً مع الحسن الصباح ، وكانت شروط الاتفاق تعلى من شأن الحسن بمقدار ما تزرى بالسلطان .

ولست أزعم أن هذه الروايات المتواترة عن شدة نفوذ الحسن وفرط طاعة أعوانه له فوق متناول الشك ، ولكن يمكن أن نتبين من خلال أمثال هذه الروايات المستفيضة حقيقة تسمو على الشك ، وهى قوة استيلاء الحسن على نفوس أصحابه ، واستحكام هيبته فى نفوسهم ، وأنهم كانوا يصدرون عن أمره ولا يقصرون فى طاعته ، ولكن من هو هذا الحسن بن الصباح

الذى بلغ من نفوس أتباعه هذا المبلغ ، واستطاع بدهائه وسعة حيلته أن يسخرهم فى سبيل أهوائه ومطامعه ؟

ولد الحسن بن على الصباح فى مدينة الرى ، والظاهر أن تاريخ ميلاده ليس معروفاً على وجه التحقيق ، والأرجح أنه ولد بعد انقضاء الثلث الأول من القرن الخامس الهجرى، وكان أبوه على الصباح فقيهاً شيعياً رقيق الحال ، يتكلف الزهد والورع ويصطنع التقية ، وقد أرسله أبوه إلى نيسابور ليأخذ العلم على « الموفق النيسابورى » ، أحد علماء السنة البارزين فى ذلك العهد ، وتلقى الحسن هنالك أصول المذهب السنى ، لا عن عقيدة واقتناع ، وإنما توقياً للشر ودفعاً لتهمة الإلحاد والزندقة .

ودرس الحسن الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء ، وهى العلوم التى كان يستعين بها فى عصره أصحاب المطامع والأدعياء والدجالون ، ليتخذوا منها وسيلة لاستغلال العامة ، واستجلاب المنافع ، وتوطيد النفوذ .

وعمل الحسن فى ديوان السلطان ملكشاه فى أصفهان ، وأظهر فى عمله تفوقاً ملحوظاً ، وقدرة نادرة ، وكفاية عظيمة ، فرضى عنه السلطان وقرّبه ، وصار يستشيره فى الملمات والأحداث الجسام ، فأوغر ذلك صدر الوزير الخطير « نظام الملك » صاحب الدولة والصولة فى عهد ملكشاه ، وخشى على

نفوذه من دسائس الحسن ، ونشبت بين الرجلين معركة طاحنة عقد فيها لواء النصر للوزير ، الذى استطاع أن ينال من مكانة الحسن عند السلطان ، ويكشف له عن نياته الخفية ، ومخالفاته المذهبية ، فأقصاه السلطان عنه ، وفصله من خدمة الديوان

وقد نشأ الحسن فى عصر اشتد فيه النزاع بين مذاهب الشيعة والمذهب السنى ، وكان الحسن فى أول نشأته من الشيعة الأثنى عشرية ، وقوى الصراع بين أنصار الشيعة الأثنى عشرية والشيعة الإسماعيلية ، وخاض الحسن غمار الجدل بين دعاة المذهبين ، ومال إلى المذهب الإسماعيلى ، وانضم إلى دعاته ، وبرز بينهم بما أوتى من قدرة على الإقناع ، وما بذله من جهد فى العمل على نشر المذهب الإسماعيلى ، وقد ظهرت بوادر هذا النشاط فى إذاعة الدعوة الإسماعيلية وهو يعمل فى ديوان السلطان ملكشاه ، وكان ذلك من بواعث تصدى الوزير نظام الملك لمحاربته ، فقد كان نظام الملك شديد التمسك بالمذهب السنى وخصماً عنيداً للشيعة .

وفرغ الحسن بعد طرده من ديوان السلطان ملكشاه للدعوة الإسماعيلية ، حتى أصبح فى الرعيل الأول من رعاتها ، وتضلع فى علوم مذهبه ، وتعمق فى معرفة مبادئه والإلمام بدقائقه ، واتصل بعبدالملك بن عطّاش رئيس الدعوة الإسماعيلية بأصفهان ،

وسرّ به ابن عطّاش ، وأعجب بعلمه وإخلاصه للدعوة ، واختصه بثقته وحسن تقديره ، ومهد له ابن عطاش سبيل الذهاب إلى مصر ، ليرتشف أصول المذهب الإسماعيلى من ينابيعه الأصيلة ، ويعرف أئمة المذهب وكبار دعاته ، وقد وصل الحسن إلى مصر فى سنة ٤٧١ ، واستطاع أن يتعرف على كثير من الإسماعيلية فى طريقه إلى مصر ، والظاهر أن الدعاة بمصر كانوا يعرفون الكثير من أخبار الحسن وحسن بلائه فى الدعوة الإسماعيلية ، فقد رحب به داعى الدعاة ، وأكرم وفادته الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وأفرد لإقامته منزلاً خاصاً ، وذلك بالرغم من أنه لم يسمح له بالمثول بين يديه واجتلاء محياه ، وكان مع ذلك يظهر عطفه عليه وحبه له ، ولا يتكلم عنه إلا بكل إجلال وإكبار كما يروى لنا الحسن نفسه .

وقضى الحسن فى مصر ثمانية عشر شهراً ، أكب فيها على علوم الإسماعيلية ، ودرس فيها أصول المذهب الإسماعيلى السرية دراسة وافية مستفيضة على أساتذة « دار الحكمة » وفى مجالس كبار رجال الدعوة ، ولم يكن للخليفة الفاطمى حينذاك نصيب من النفوذ السياسى ، وكانت مقاليد الحكم بيد أمير الجيوش « بدر الجمالى » المتغلب على الدولة والمستأثر بالنفوذ ، واتفق فى أثناء وجود الحسن بمصر أن أثيرت مسألة وراثة العرش ، فرشح

الخليفة الفاطمى ابنه نزاراً ليكون خليفة له ، ولكن الوزير الخطير بدراً الجمالى لم يرض عن هذا الترشيح ، واختار لولاية العهد المستعلى – وكان المستعلى حفيد الوزير الخطير – وأيده فى ذلك أنصاره ، ولم يعجب الحسن هذا الاختيار ، لأنه كان يرى فيه مخالفة للتعاليم الإسماعيلية ، وساءه تحيز أمير الجيوش لاختيار المستعلى ، وقامت المنازعات بينه وبين أمير الجيوش ، وهكذا كان الحسن مبتلى بعداوة الوزراء العظام ، وقد حمل بدر الجمالى الخليفة المستنصر على إقصاء الحسن ، وأمر به فاعتقل فى بعض قلاع دمياط ، ولم يكتف الوزير بذلك لأنه كان يعتقد أن فى وجود الحسن بمصر خطراً على كيانه ، ولذا عمل على رحيله إلى بلاد المغرب ، ولكن الأقدار كانت تعد للحسن مصيراً آخر ، فقد فر الحسن من معتقله ، وانتقل فى بعض السفن إلى سواحل الشام ، ويروى أن عاصفة شديدة هبت على السفينة فى أثناء الرحلة ، ويئس الملاحون وسائر ركاب السفينة من النجاة ، وخافوا وجزعوا ، وظل الحسن محتفظاً بثباته وتجلده وصفاء تفكيره ، ولما سأله بعض من بالسفينة عن سبب هدوئه وثباته ، وقد طارت النفوس شعاعاً وتبددت جزعاً وإشفاقاً ، أجابهم : « إن الله وعده بالنجاة » ، وهدأت العاصفة بعد ذلك وشقت السفينة طريقها آمنة مطمئنة ، فعدّ ركاب السفينة ذلك

من المعجزات ، وكبر الحسن فى نفوسهم ، وتفانوا فى خدمته وطاعته وانضم فريق منهم إلى دعوته .

وقد سبب الخلاف بين الحسن وبين أمير الجيوش مضايقات للحسن وأوقعه فى مشكلات ، ولكن من ناحية أخرى قد رفع من شأنه فى نظر أنصار الدعوة الإسماعيلية ، لأنه أظهره فى مظهر المنتصر للمبادئ الحريص على أصول الدعوة ، وقد أفاد الحسن من دراسته الأحوال فى مصر ، وأدرك أن الدعوة الإسماعيلية فى مصر قد أصبحت ضعيفة أمام نفوذ القواد وكبار رجال الدولة ، وأخذت ترتسم فى نفسه صورة مجتمع إسماعيلى خالص أصبح نظاماً وأثبت أساساً من المجتمع الإسماعيلى الذى رآه فى مصر ، وأخذ يفكر فى الوسائل الكفيلة بتحقيق غايته ، وبدأت تتضح له خطوط السياسة الخطيرة التى اتبعها بعد ذلك ، والتى جعلت منه زعيم جمعية سرية من أخطر الجمعيات السرية التى عرفها التاريخ .

وقد نزل الحسن من السفينة فى ثغر عكا ، وقصد منها إلى حلب ، وارتحل من حلب إلى بغداد ، وغادر بغداد إلى خوزستان وأصفهان وكرمان ، وهو عاكف على بث الدعوة وكسب الأنصار ، ورغم تحفظ الحسن وبراعته فى اصطناع التقية أفلتت منه تصريحات تدل على بعض طموحه وعظيم جرأته ،

فقد اعترف لأحد أنصاره بأنه يعمل على هدم سلطان السلاجقة وتقويض دولتهم وقتل الوزير نظام الملك خصمه القديم وعدوه المبين .

ولم يكن الحسن الرجل الذى يكتفى بمجرد الدعوة ويقتصر عليها ، وإنما كانت الدعوة فى نظره مرحلة تمهيدية ، وقد مكنته رحلاته المتوالية وتنقلاته الكثيرة من أن يعرف طبيعة المقاطعات وسائر الأنحاء التى أظلها نفوذ السلاجقة ، فأخذ يتحين الفرص للاستيلاء على قلعة « آلموت » المنيعة الشاهقة لوقوعها فى هضبات وعرة فى المنطقة الشمالية من إيران ، وقد تمكن من امتلاك هذه القلعة فى سنة ٤٨٣ كما قدمت ، واتخذها قاعدة لأعماله وبث دعوته فقوى بذلك نفوذه وعظمت مكانته ، واستفحل فى الوقت نفسه خطر دعوته .

وقد ظل الحسن يدعو للخليفة المستنصر الفاطمى طوال حكمه ، فلما مات هذا الخليفة فى سنة ٤٨٧ ، خرج الحسن وأشياعه على إمامة ابنه المستعلى وخلافته ، ونادوا بإمامة نزار الإبن الأكبر للمستنصر ، وأقنع الحسن أنصاره بأن نزاراً هو الإمام الحق ، وأن المستعلى قد اغتصب منه الإمامة والعرش ، ولما قتل الأمير نزار فى القاهرة سنة ٤٨٨ ظل الحسن يدعو له باعتباره من الأئمة المستورين ، وأصبحت الدعوة الإسماعيلية

النزارية تعرف بالدعوة الجديدة ، ولما كان الحسن يريد من أتباعه الطاعة المطلقة والخضوع التام جعل عقيدة « الإمام المعصوم » ركناً هاماً من أركان دعوته ، ونادى بوجوب طاعة هذا الإمام المعصوم وطاعة نائبه أو حجته ، وبذلك استطاع الحسن أن يملك نفوس أنصاره ، ويوجههم التوجيه الذى يريده ، ويحملهم على تلبية مطالبه بغير مناقشة ولا مراجعة ولا تردد .

وجعل الحسن لرجال دعوته وأشياع مذهبه مراتب ودرجات ، فالمرتبة الأولى مرتبة رئيس الدعوة ، وكان أصحابه يلقبونه بلقب « مولانا » و « سيدنا » ، واللقب الذى اشتهر به الحسن هو لقب « شيخ الجبل » ، والمرتبة الثانية هى مرتبة كبار الدعاة ، والمرتبة الثالثة مرتبة الدعاة ، وهم الذين يقومون بنشر مبادئ الدعوة الجديدة ، وكان يراعى فى اختيارهم أن يكونوا ممن يوثق بعقيدته ويطمأن إلى إخلاصه وطاعته ، وكان الحسن يشترط فى الداعى أن يكون بارعاً فى التشكيك ، عارفاً بأطوار النفوس وبصيراً بأحوال الناس ، والمرتبة الرابعة هى مرتبة الرفاق ، وهم الذين درسوا أصول الدعوة ولكنهم لم يؤمروا بنشرها ، ويختار الدعاة من بينهم بعد التجربة الفاحصة والاختيار الممحص ، وكانت المرتبة الخامسة مرتبة الفدائيين ، وهم الذين كان الحسن يستخدمهم فى قتل أعدائه ومنافسيه ، وكانوا لا يترددون فى التضحية بأنفسهم

فى سبيل طاعته ، وقد أصبحوا فى يد الحسن سلاحاً فتاكاً وآلة انتقام رهيبة ، وقد ملأ بهم الحسن نفوس معاصريه خوفاً ورعباً . وعرف أفراد هذه الطبقة بالجرأة النادرة والصبر على مغالبة الصعاب وتجشم الأخطار ، وكان يختارهم الحسن من الشبان الأقوياء ، ويدربهم تدريباً خاصاً يجعلهم أهلاً للقيام بالجرائم المنكرة التى كان يأمرهم بها ، وكانت المرتبة السادسة مرتبة اللاصقين وكان هؤلاء يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق إذاعة الدعوة ، وكانوا يدربون للدخول فى مرتبة الفدائيين ، وكانت المرتبة السابعة هى مرتبة المستجيبين وهم العامة أو المؤمنون المبتدئون ، وقد جرى الحسن على طريقة الإسماعيلية فى تقسيمه شيعته إلى سبع طبقات .

وجعل الحسن لدعوته النزارية سبع خطوات ، وقد أوضح معالم هذه الخطوات السبع للدعاة لكى يسترشدوا بها فى استدراج الناس إلى الدخول فى الدعوة ، وكانت الخطوة الأولى فى هذه الخطوات السبع هى خطوة التفرس ، وهو التفطن لحالة المدعو وسبرغوره ، وكان الحسن ينصح رجاله باختيار العامة البسطاء ، والإعراض عن الجهلة الحمقى ، والمثقفين الأذكياء ، لأن الأولين لا يرجى منهم خير ، والمثقفين لا يسهل إقناعهم ولا يتيسر خضوعهم وانقيادهم ، وخطوة التفرس كانت من

الخطوات الخطيرة فى نشر الدعوة ، لأنها تستلزم معرفة بطبائع الناس وخبرة ودراية ، وفضلا عن ذلك فهى الخطوة الأساسية ، والخطوة الثانية هى خطوة التأنيس ، وهو إشاعة الأمن والطمأنينة فى نفس المدعو ، وذلك بتحبيذ ميوله وإطراء اتجاهاته واستحسان كل ما يصنع ، وبذلك يكتسب الداعى حب المدعو وعطفه وثقته ، والخطوة الثالثة بعد ذلك هى خطوة التشكيك وهى خطوة جريئة تقتضى قدرة على تفهم نفسية المدعو وتوهين عقيدته ، دون أن يتسرب إليه الشك فى إخلاص الداعى أو فى العقيدة الإسماعيلية ، ومتى شك المدعو فى عقيدته تملكته الحيرة ودفعه حب الاستطلاع إلى التماس العون من الداعى ، وهنا يجد الداعى الفرصة مواتية للتمويه على المدعو واستدراجه إلى المذهب الإسماعيلى ، وتتبع هذه الخطوة خطوة التعليق ، وهى ترك المدعو حيناً من الزمن مزعزع العقيدة ، نهباً لوساوس الشكوك حتى يقوى « تطلعه » ويشتد تعطشه ، ويلقى مقادته إلى الداعى ليستنقذه من غول الشكوك وبيداء الحيرة . ويتبع ذلك خطوة التدليس ، وفى هذه الخطوة يكون المدعو قد وقع فى الشبكة التى نصبها له الداعى ، وأصبح طوع أمره ورهن إشارته يؤمل على يديه الخير ، ويتلقى كلامه كأنه حقائق لا يرتفع إليها الشك ، ويستغل الداعى هذا الموقف فيسرف فى الادعاءات ويكثر من

التلبيسات ، وينتقل بالمدعو بعد ذلك إلى الخطوة السادسة وهو خطوة التأسيس ، والمقصود بهذه الخطوة تثبيت المعلومات التى تلقاها المدعو فى نفسه ، وهذه الخطوة مدرجة الوصول إلى الخطوة السابعة الأخيرة وهى مرتبة الخلع ، ومعنى الخلع أن المدعو قد انتزع انتزاعاً نهائياً من المذهب السنى ، وأصبح إسماعيلياً راسخ العقيدة قوى الإيمان يعتمد عليه ، ويوثق به ، ولا يخشى ارتداده عن المذهب أو خيانته لرؤسائه . وكان لعناية دعاة الإسماعيلية بمراعاة التدرج فى هذه الخطوات أثرها القوى فى جعل هذه الجمعية السرية العجيبة قوية الأسس ، متماسكة البنيان ، يدين أعضاؤها جميعاً بالولاء التام والطاعة المطلقة لرئيسهم الأعلى ، نائب الإمام المستور الحسن بن الصباح .

وقد تبين خطر هذه الجمعية السلطان ، ملكشاه ، وكاد ينجح فى القضاء عليها ، لولا موته فى سنة ٤٨٥ ھ ، واستغل الحسن الخلاف الذى وقع بين أبناء هذا السلطان على عرش أبيهم ، وما تبع ذلك من نشوب الحرب الأهلية بينهم ، فأخذ فى امتلاك القلاع والحصون من السنيين ، وكانت أعنف تلك الحروب الأهلية الحرب التى قامت بين الأخوين « بركيا روق » و « محمد » ابنى السلطان ملكشاه ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقد ظهر خطر خارجى هائل هدد دولة السلاجقة وكاد يعصف

بالعالم الإسلامى جميعه ، وهو هجوم الصليبيين على المشرق ، وقد شغل ذلك دولة السلاجقة عن الانتباه للحسن وجماعته ، فضاعف الحسن جهوده وأرسل دعاته إلى بلاد الشام ، واستولوا بها - بعد جهود كبيرة - على كثير من القلاع الجبلية المنيعة .

وهناك عامل آخر كان له أثر كبير فى تزايد قوة الحسن ، وامتداد سلطاته ، ونجاح دعوته ، وتعاظم نفوذه السياسى ، وهذا العامل الهام هو الإرهاب ، فقد درج أتباع الحسن على القتل غيلة فأرهبوا الملوك والوزراء والقواد ، حتى اضطر الكثيرون من الرؤساء والأمراء والسلاطين إلى مداراتهم اتقاءً لشرهم ، وأصبح للحسن فى قصور الملوك ودواوينهم عيون وجواسيس يوافونه بالأخبار ، ويطلعونه على حقائق الأحوال ، ويخلصون فى خدمته ، ويعملون على توطيد نفوذه ، وعم الناس الخوف من خناجر الفدائيين وفتكاتهم المروعة ، وفى ذلك يقول الأصفهانى فى كتاب « تاريخ دولة آل سلجوق » « فلم يشعر إلا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معاقدهم ، وأخافوا السبل ، وأحالوا على الأكابر الأجل ، وكان الواحد منهم يهجم على كثير ، وهو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة ، ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة ، فصار الناس فيهم فريقين ، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ،

ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة ، فمن عاداهم خاف من فتكهم ، ومن سالمهم نسب إلى شركهم فى شركهم. وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ، فأول ما بدأوا بقتل نظام الملك ، ثم اتسع الخرق ، وتفاقم الفتق ، ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف ، تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البرىء السقم وتوفرت على التوقى الهمم [١] » .

ولما طالت الحرب بين السلطان محمد بن ملكشاه وبين أخيه السلطان بركياروق اشتد إيذاء إتباع الحسن للناس وصاروا يختطفون من لم يعتنق مذهبهم من الشوارع والطرقات ، وتعرضوا للحاج وفتكوا بهم ، وتحدوا الأمراء والوزراء . وقد روى ابن الجوزى فى حوادث سنة ٤٩٣ هجرية أن أحد الفدائيين قتل أميراً فى مدينة الرى بدار الوزير فخر الملك بن نظام الملك ، وقيل إن الرجل من أتباع الحسن ، فأحضر بين يدى فخر الملك فقال له « ويحك ! قتلت هذا الأمير فى دارى ، وهتكت حرمتى وأذهبت حشمتى ! فقال الباطنى « وهل لك حرمة مهتوكة ودار مملوكة أو حشمة تمنع من الدماء المسفوكة ؟ » أو ما علمت أننا ستة نفر بعثنا إلى ستة لنقتلهم أحدهم أخوك ؟ قال « وهل أنا

(١) صفحة ٦٣ من كتاب تاريخ دولة آل سلجوق .

من جملتهم ؟ » فأجابه الفدائى « أنت أقل من أن تذكر أو نلوث سكاكيننا بدمك » .

وقد انضم إلى صفوف جماعة الحسن كثيرون من كبار رجال دولة السلاجقة ، وكان فى بطانة السلطان بركياروق عدة من رجال الحسن ، والواقع أن السلطان بركياروق استعان برجال الحسن فى محاربة أخيه السلطان محمد ، ولما تم له الانتصار قلب لهم ظهر المجن وقاومهم ليدفع عن نفسه من ناحية تهمة الشك فى عقيدته ، ومن ناحية أخرى اتقاءً لخطرهم ، وإبقاء على سلطانه ، فانتقم منه النزاريون بقتل وزيره على أبواب أصفهان ، على أن قاعدتهم وهى قلعة « ألموت » لم تستهدف فى عهد السلطان بركياروق (٤٨٧ — ٤٩٨ هجرية) للخطر الذى استهدفت له فى حكم السلطان ملكشاه

وقد كان السلطان محمد (٤٩٨ — ٥١١) أشد وطأة على طائفة الإسماعيلية النزارية من أخيه بركياروق ، وقد استطاع أن يتغلب على ابن عطاش صاحب قلعة شاه دز و وجه كل قواه إلى قلعة « ألموت » وحاصرتها جيوشه حصاراً شديداً ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكادت تقع قلعة « ألموت » فى يده لولا هجوم الشتاء وسقوط الثلوج ، وعمل الحسن على الانتقام من ضياء الملك وزير السلطان محمد ، فشيع وراءه جماعة من

الفدائيين أصابوه بجروح شفى منها بعد علاج طويل ، وعناية متصلة من الأطباء ، ولم يثن إخفاق هذه الحملة عزم السلطان محمد ، فقد أعد جيشاً آخر لمهاجمة قلعة « ألموت » واختار له قائداً بارعاً من أقدر قواده ، وأصدقهم إيماناً وأشدهم كراهة لجماعة الإسماعيلية النزارية ، وقد ضيق هذا القائد الحصار على الحسن حتى ضاق به ذرعاً وساءت أحواله ، وقلت الأقوات فى القلعة ، ولكن الحظ لم يتخل عن الحسن فى هذه المحنة الشديدة فقد مات السلطان محمد فى سنة ٥١١ ، وخلفه ابنه السلطان محمود ، وقد تمكن وزيره الدركزينى من حمله على استدعاء الجيش المحاصر لقلعة « ألموت » ، وكان هذا الرجل يدين بالمذهب الإسماعيلى ، وهكذا رفع الحصار عن القلعة ، وتمكن الوزير الدركزيتى من إيغار قلب السلطان محمود على ذلك القائد الهمام الذى شدد الحصار على قلعة « ألموت » حتى كادت تسقط فى يده ، فأمر السلطان بقتله ، وكان لانتصار الحسن فى هذه الجولة أثر كبير فى توطيد مكانته وإعلاء شأنه ، واستقرار نفوذه ، واتساع سلطانه ، وتزايد هيبته .

وأراد السلطان سنجر أن ينهج نهج أخيه السلطان محمد فى مقاومة الإسماعيلية النزارية ، وحاول حصار قلعة « ألموت » وقد هدده الحسن برسالة يقول فيها « إنه على الرغم من أنى أعيش

فوق تلك الصخرة — « ألموت » — فإن أولئك الذين فى خدمتك هم طوع أمرى ورهن إشارتى » ، فتخلى السلطان سنجر عن حصار القلعة ، وعقد مع الحسن صلحاً دلت شروطه على مبلغ قوة الحسن وعظم سطوته ، ومدى ضعف السلطان سنجر وتخاذله وتراجعه ، وعاب الناس على السلطان سنجر هذا التصرف المزرى بكرامته ، وقد استعان السلطان سنجر بعد ذلك بالإسماعيلية النزارية فى مقاومة منافسيه ، والخلاص من أعدائه ، وأصبحت الطائفة التى يتزعمها الحسن قوة يخشى بأسها وترجى مساعدتها ، ولا يجترئ أحد من سلاطين السلاجقة أو أمرائهم على أن يمسها بسوء ، ولما مات الحسن عن سن عالية فى سنة ٥١٨ ترك لخلفائه دولة ثابتة الدعائم مزودة بأسباب البقاء ، موفورة القدرة على مغالبة الحوادث . وواضح من سيرة الحسن ومواقفه فى مراحل حياته المختلفة الحافلة أنه كان رجلا بعيد الغور ، قوى الشخصية ، من هؤلاء الرجال النوادر الجبابرة العتاة ، الذين لا يعرفون — فى سبيل مطامعهم — التفريق بين الخير والشر ، أو الحلال والحرام ، فالخير والحلال عندهم هو كل ما أعانهم على تحقيق غاياتهم ، والشر والحرام هو كل ما اعترض طريقهم ، وحال دون تحقيق مطامعهم . فهو من طراز « شيزارى بورچيا » الذى اتخذه مكلياڤلى أنموذجاً لأميره ، ومن طراز « روبسبيير » فى استباحته

قتل كل من خالف مذهبه ، وانحرف عن عقيدته . وهو فى سبيل نجاح سياسته لم يعف عن اغتيال الوزراء والعلماء وغيرهم من أتباع المذهب السنى ، وفى سبيل مبادئه لم يتورع عن قتل أحد أبنائه ، لاتهامه بشرب الخمر والزنا ، وطرد من قلعة « ألموت » رجلا من أنصاره لأنه كان يتسلى بمزماره ، وقتل ابنه الآخر لأنه اتهم بالاشتراك فى قتل أحد دعاته المقربين ، واختار لخلافته رجلا من كبار دعاته كان يثق به ويقدره لإخلاصه فى الدعوة وتفانيه فى حب المذهب الإسماعيلى النزارى ، وهذا الرجل هو « الكيابزرجميد ». وقد عاش الحسن فى قلعة « ألموت » فى عزلة رهيبة وخلوة صامتة ، زاهداً قانعاً لا يعرف البذخ ولا الترف وبرغم نفوذه وثروته نشأ بناته ونساءه على كسب حياتهن عن طريق الغزل ، ويروى أنه لم يخرج من داره فى « ألموت » قاعدة حكمه سوى مرتين ، وكان يقضى وقته فى الصلاة والتأليف فى أصول العقيدة الإسماعيلية ، أو الرد على كتب أهل السنة ، وقد ذكر الشهرستانى فى كتاب « الملل والنحل » خلاصة بعض رسائله الفلسفية الكلامية التى وضعها باللغة الفارسية ، وهى تدل على قدرته الجدلية وتعمقه فى فهم أصول مذهبه ، والرجل الذى يرد جحافل السلاجقة عن قلعته ، ويدبر الأمور هذا التدبير المحكم الدقيق ، وينظم جماعته هذا التنظيم البارع الطريف ويوطد

دولته توطيداً ويرسى قواعدها إرساءً ويجمع مقاليد الأمور كلها في يده القوية ، ويسهر على صيانتها بعين لا تغفل ولا تنام ، وهو في عزلته النائية ، ومجثمه المنيع لا بد أنه كان سياسياً من الطراز الأول ، وزعيما نادر المثال ، ورئيساً من رؤساء الجمعيات السرية الأقوياء الشكيمة الراجحى الرأى الثاقبى الفراسة . وقد ظلت الدولة التي أسسها قائمة حتى اكتسحها هجوم المغول الجارف فسقطت في سنة ٦٥٤ هجرية ، بعد سقوط دولة خوارزم شاه وقبل سقوط الدولة العباسية بعامين ، أى أن الدولة التي أسسها الحسن الصباح أو الجمعية السرية التي أنشأها بتدبيراته العجيبة وأساليبه المدهشة ، استطاعت أن تعيش وتثبت للأحداث الجسام والتقلبات الخطيرة قرابة قرنين من الزمان .

طائفة الخناقين

في القصيدة الهمزية البديعة التي عاتب بها الشاعر الكبير ابن الرومي صديقه أبا القاسم التَّوَّزي الشطرنجي ، يقول ابن الرومي متحدثاً عن براعة صديقه في لعب الشطرنج ، ومتغنياً بها

لك مكر يدب في القوم أخفى   من دبيب الغناء في الأعضاء
أو مسير القضاء في ظلم الغيـ   ـب إلى من يريده بالتَّواء

وكذلك كان مكر أفراد هذه الطائفة في ارتكاب الجرائم وإزهاق النفوس ، فقد بلغ من براعتهم في التخفي والاستتار وإخفاء آثار الجرائم وإزالة معالمها إلى حد أن أمرهم لم يكشف وحقيقة إسرافهم في انتهاب الأرواح لم تعرف إلا بعد أن فتكوا بحياة الألوف من أهل الهند ، وكان العضو في هذه الجمعية السرية الرهيبة يفخر بأنه وحده أودى بحياة من لا يقلون عن ستمائة من الناس ، دون أن يثير أية شبهة تدعو إلى التَّظنن في انتسابه لهذه الجمعية الخفية ، سواء في نفس زوجته أو نفوس سائر أفراد أسرته ، وواضح من ذلك أن هذه الطائفة الدينية الإجرامية من أحق الجمعيات بأن توصف بالسرية.

ولقد ظل القضاة الإنجليز فى الهند حيناً من الزمن وهم يرفضون الاعتقاد بوجود مثل هذه الجمعية . وحتى عند ما تواترت الأدلة وتوالت القرائن على وجود مثل هذه الجمعية كان الشك ما زال يخالج نفوسهم ، وذلك لغرابة الأسلوب الذى جرى عليه أفراد هذه الجمعية السرية حتى فى الهند أرض الغرائب وبلاد العجائب .

كان أفراد هذه الطائفة الإجرامية يسلبون الفريسة بعد القضاء عليها ، وذلك بالرغم من أن القتل كان المقصود به قبل كل شىء إرضاء الإلاهة «كالى» والتماس عونها ، وكان هذا العنصر الدينى هو مساك الجماعة ، ومصدر قوتها ، وسر نجاحها فى إصابة أهدافها ، ولا تعرف جمعية سياسية أو إجرامية أخفت أمرها وحافظت على سرها زمناً طويلا مثل هذه الجمعية ، فتاريخ هذه الطائفة يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، إذ جاءت إلى أرباض مدينة دلهى سبع قبائل من البدو الرحل المسلمين ، واستهوتهم عبادة الهنود لإلاهتهم «كالى» فنذروا أنفسهم لعبادتها ، مع احتفاظهم بديانتهم الأصلية . وكانت هذه الإلاهة إلاهة التدمير ، وزجة الإله العظيم « سيوا » ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن من أوائل موجدى هذه الطائفة جماعة من الإسماعيلية النزارية الذين فروا إلى الهند بعد سقوط قلعة « ألموت »

في يد المغول وتخريبها ، ومهما كان من أمر هذه الجمعية فقد ظلت فى أكنان الخفاء حتى كشف سرها فى أوائل القرن التاسع عشر ، وبالرغم من يقظة جواسيس الإنجليز فى الهند ، فإنهم لم يخطر ببالهم الظن بوجود مثل هذه الطائفة حتى سنة ١٧٩٩ ، وأول ما أثار الشبهة اختفاء عدد كبير من الجنود الوطنيين الذين كان يرخص لهم بإجازات لزيارة أهلهم ، وحينما كان هؤلاء الجنود لا يرجعون إلى فرقهم كان يظن فى بادئ الأمر أنهم قد هربوا من خدمة الجيش ، والواقع أن هؤلاء الجنود كانوا يذهبون فريسة سهلة صالحة لطائفة الخناقين، فقد كانوا يسافرون فرادى أو فئات قليلة وجيوبهم عامرة بالنقود ، وكان أهلهم لا يعرفون شيئاً عن قدومهم ولا يتوقعونه، ولم تكن الحكومة تجدّ فى البحث عنهم بعد اختفائهم ، وتكتفى بعدّهم هاربين من الجندية .

ولكن الحقائق أخذت تتكشف ،ومع ذلك فإنه بعد انقضاء ربع قرن على كشف وجود هذه الجمعية المخيفة كانت المعلومات الدقيقة المستمدة من التقارير تثبت وجود عشرة آلاف من الخناقين ، وكل واحد منهم لا يقل ضحاياه فى العام عن ثلاث . وأنشأت الحكومة الهندية إدارة خاصة لمقاومة الخناقين ، وسرعان ما امتلأت بهم السجون وعنى اللورد « وليام بنتنك » بالأمر عناية خاصة ، وبذل غاية ما فى وسعه للقضاء على هذه

الطائفة ، واستعان بكل وسيلة ، وبرغم ما اتخذ من وسائل وبذل من جهود فإنه لم يوفق فى القضاء على هذه الطائفة إلا فى سنة ١٨٣٥ ، ومع ذلك فإنه لم يقض على الطائفة قضاء تاماً .

ولما كان أفراد هذه الجمعية لا يحسنون عملا آخر ليعيشوا منه ، فقد أنشأت لهم الحكومة مدارس صناعية فى السجون والمعتقلات ، وكثيرون منهم نبذوا حياة التنقل والجوبان واستقروا فى القرى ، وشغلوا أنفسهم بفلاحة الأرض فى هدوء وسلام ، وكانوا يمتازون بين سكان القرى بدماثة الأخلاق وجودة الفهم . وفى حالات كثيرة كان عمداء القرى يفيئونهم ظل رعايتهم ويحمونهم ويتسترون عليهم ، وكانوا فى مقابل ذلك يعطونهم نصيباً من نهابهم وأسلابهم ، وكان بعض رجال الشرطة يمارسون عمل الخناقين فى أوقات فراغهم ، والأعجب من ذلك أن بعض الخناقين أصبحوا عمداء فى القرى ، وارتفع مقامهم وعظم نفوذهم ، دون أن يثير ذلك أقل شبهة ! وكان ذلك كله يضاعف من متاعب الحكومة ويجعل محاولتها القضاء على هذه العصبة شاقة مجهدة .

وكانت الجمعية تجمع الهندى المسلم والهندى الهندوسى فى صعيد واحد ، فيتحابان ويتصافيان ويتعاونان على الشر والإثم ، وكان للجماعة علامات وشارات يتعارفون بها ، وكانت هذه الشارات والعلامات موحدة فى جميع أنحاء الهند ، ولذا كان الفرد

من أفراد الجمعية يجد منزلا رحباً وأصحاباً بأصحاب أينما حل ، وكانت حياة الخناقين – إذا استثنينا منها ممارسة الخنق – حياة فاضلة مثالية ، وكان ذلك يثير تعجب حراس السجون ورقباء المعتقلات ، وأحد المسجونين من أفراد هذه الجمعية – وقد انقلب فيما بعد شاهد ملك على الجمعية ودل على نحو مائتين من أفراد العصبة – كان رجلا وديعاً محبوباً حسن السمت مقبول الصورة ، وقد اعترف مفاخراً بأنه قتل خمس نساء وأكثر من مائة رجل ، وكان يتحدث عن أعماله بحماسة قوية ، لا تلائم مظهره الهادئ ولا سلوكه البرىء من العيوب فى ظاهره ، وكانت تظهر قوة إيمانهم بإلاهتهم المروعة فى الطريقة التى كانوا يقابلون بها الحكم عليهم بالموت ، فقد كانوا يلقون الموت بحماسة ، مقدمين حياتهم للإلاهة « كالى » معبودتهم بالسهولة نفسها التى كانوا يسلبون بها حياة الغير ، وكان الشىء الوحيد الذى يزعجهم ويثير خواطرهم هو خوفهم أن يموتوا بالسيف أو بالرصاص ، وكانوا لا يكفون عن الرجاء والتوسل ليقتلوا خنقاً أو شنقاً .

وسبب ذلك الأسطورة التى ترجع إليها عقيدة الخناقين ، ففى بدء وجود العالم – كما يرى الهندوس – كان هناك قوتان هائلتان منبعثتان من الكائن الأسمى ، وكانت هاتان القوتان فى صراع دائم ، فكانت القوة الخالقة تعمل على ملء العالم بالسكان

فى سرعة لا تستطيع ملاحقتها القوة المدمرة ، وكانت القوة الخالقة تتمثل فى الإله « ڤشنو » والقوة المدمرة تتمثل فى الإله « سيوا » ، فعقدت الإلاهة « كالى » زوجة الإله « سيوا » العزم على معاونة زوجها فى التدمير والإبادة ، ولتحقيق هذه الغاية أنشأت تمثالاً ، ونفخت فيه من روحها ، وجمعت عبادها وأطلقت عليهم اسم « الخناقين » ، وعلمتهم كيف يقتلون الصورة التى أوجدتها دون إراقة دم ، وكانت تأخذهم باتباع هذه الطريقة فى القتل لأن إراقة الدماء تبعث الحياة من جديد .

وكانت هذه الأسطورة تفرض عليهم اتباع طريقة القتل خنقاً ، وتجعل للخناق أسمى منزلة بين المنتسبين إلى جماعة الخناقين ، وكان الخناق لا يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد تدرج فى مراتب الجمعية وتدريب طويل ، وكان يكلف فى المرحلة الأولى حفر القبور لمواراة جثث الضحايا ، وإذا تجاوز هذه المرحلة ، عمل دليلا أو طليعة للخناقين ، يرشدهم إلى ميادين العمل ، ويهيئ لهم فرصة ممارسة الخنق ، وكان للتقدم من درجة إلى درجة أسمى مراسيم وشعائر وحفلات تستغرق أياماً أربعة وكان المستجيب فى خلال تلك الأيام يقتصر على تناول اللبن ، ويكثر من الصلاة والدعاء للإلاهة « كالى » ، ثم يوضع فوق الأرض صليب من الخشب ويظل يمارس فن الخنق على هذا

الصليب الخشبى حتى اليوم الخامس ، وفى ذلك اليوم يعطيه الكاهن الأحبولة القاتلة ، وقد غسلت بالماء المقدس ومسحت بالزيت ، ويتبع ذلك إقامة الحفلات الدينية ، ويقسم المستجيب أقساماً مغلظة بأنه يكتم السر كتماناً تاماً ، ويعمل بلا انقطاع ولا تردد على هلاك الجنس البشرى وإبادته ، وكانت الأسطورة القديمة تقول إن الإلاهة «كالى» تعد أتباعها بأنها تهديهم وترشدهم بطريق النُّذُر والعلامات والطوالع ، ولذا كان من أهم ما يمارسه الخناق معرفة النذر ومطالعة الطوالع وقراءة العلامات ، وكان طيران الطيور ، واختلاج الشاة الحديثة الذبح ، وإلقاء الفأس من العلامات التى تعد بالنجاح أو الإخفاق ، وبعض هذه العلامات كانت تستشار وتتبع قبل القيام بأية حملة من الحملات ، فإذا عبر طائر الطريق من الشمال إلى اليمين عند قيام الحملة كان ذلك سبباً كافياً لإرجاء الحملة وإنقاذ حياة الضحايا البريئة ، ولما كانت حامية الطائفة من النساء كان قتل النساء من المسائل المحرمة المكروهة ، وكانت تقاليد الطائفة تعفى كذلك من القتل المتسولين والغسالين والراقصين والموسيقيين والكناسين والحدادين والنجارين والشيوخ المتقدمين فى السن ، والمشوهين والبرص ، وكان الخناقون القدامى يعزون ما أصاب الطائفة فى أواخر عهدها من الضعف والانحلال إلى مخالفة هذه

التقاليد ، التماساً للكسب ، وفى زعمهم أن الضعف بدأ يدب فى بنية الطائفة منذ إقدامها على قتل أول امرأة .

وفى الأساطير أن الإلاهة « كالى » كانت فى بادئ الأمر تتولى مواراة جثث الضحايا ، وفى ذات يوم حاولت جماعة من الخناقين أن تتغفل الإلاهة « كالى » لتهتدى إلى سر إخفائها الضحايا ، ولكنها فطنت لتجسسهم وأدركت محاولتهم استطلاع سرها فأمرت بأن يقوم الخناقون فى المستقبل بدفن جثث الضحايا تأديباً لهم وانتقاماً منهم ، وتركت لهم معولها المقدس لينتفعوا به فى مباشرة عملية الدفن .

وكانت الخيانة والغدر هى طريقتهم المثلى فى البطش بضحاياهم ، وكانوا يؤثرون أن يغتالوا ضحاياهم وهم مستغرقون فى النوم ، وكانوا يستعملون كل حيلة حتى يصادفوا منهم غرة ، فينتقضوا عليهم ويخنقوهم ، وكانوا يظهرون بمظهر التجار الميسورين ، أو الصناع العاملين الذين يؤمن جانبهم ولا يخشى سرهم ، ويتنقلون فى البلاد جماعات ما بين العشرة والعشرين من الأفراد ، وربما وصل عددهم فى بعض الأحيان إلى الخمسين ، وكانوا يغتنمون الفرص لمخالطة المسافرين ومرافقة القوافل ، وربما سارت منهم عصابتان على مسافة متقاربة ، فإذا أثارت إحداهما شبهة المسافرين فى القافلة تقدمت العصابة الأخرى وتظاهرت

بمشاركة المسافرين فى الاشتباه بأمر العصابة الأولى ، تغريراً بهم واستدراجاً لهم ، حتى يطمئنوا إلى رجال العصابة ويثقوا بهم ، فإذا لاحت لهم الفرصة بعد ذلك أوسعوهم قتلاً بطريقة الخنق ، وسلبوا أموالهم وأمتعتهم ودفنوا جثثهم .

وكان اغتيال المسافر الذى يمضى فى طريقه منفرداً يقتضى وجود ثلاثة أو اثنين من الخناقين ، فالأول يزحف خلف المسافر ويطرح قماشاً من الحرير حول عنق الضحية ويقبض على طرفه ، وما أسرع ما يندفع شريكه إلى الأمام ، ويمسك بالطرف الآخر ، ويضغط على رأس المسافر ، فتصبح عملية الخنق سهلة ميسورة ، وإذا كان هناك شريك ثالث فإنه يقبض على ساقى الفريسة ويلقيه على الأرض ، وكان بعض الخناقين البارعين المدربين يفخر بأنه يستطيع خنق رجل بمفرده ، والخناق الممتاز هو الذى كان يستطيع أن ينتزع الرجل من فوق صهوة جواده ويخنقه ، وكان هذا الامتياز يسبغ الشرف على أسرة الخناق ويرفع من شأنه ويبقى ذكره أجيالاً بعد موته. وكان من اللازم قتل المسافرين فى القافلة جميعهم ، مهما كان عددهم ، خشية أن يبقى أحد منهم حياً ويتحدث عن اسر الجمعية ، وكانوا يستثنون من ذلك الأطفال ، ويأخذونهم أسرى ، ويلقنونهم مبادئ الطائفة ويبدأون تدريبهم فى العاشرة أو الثانية عشرة ، ولكنهم

لا يسمحون لهم بالاشتراك فى الحملات إلا إذا بلغوا الثامنة عشرة أو العشرين .

ومن تقاليدهم أنهم كانوا لا يقتلون النمور ، لاعتقادهم أن قتل النمر علامة من علامات الموت الباكر ، ويبدو أنه كان هناك شعور بالزمالة بينهم وبين النمور ، وكانوا يعتقدون أن النمر لايعتدى على الخناق إلاإذا كان قد خدع أحد زملائه فى اقتسام الأسلاب .

وبعض الخناقين كانوا لا يعبأون بالتقاليد ، فلا يعفون من القتل رجلاً ولا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً ، سواء أكان حداداً أم نجاراً أو كناساً أو مغنياً ، ولا يحفلون بقراءة الطوالع ومراقبة العلامات والنذر ، وكانوا يسوغون هذا الخروج على التقاليد ومخالفتهم للواجبات بقولهم إنهم قد أحسنوا الصنيع ، واستنقذوا حياة الضحايا من عذاب الدنيا وشقاء الحياة ، وأسرعوا بهم إلى جنة الخلد ؛ ونعيم البقاء ، ومن أجل ذلك لا يعد عملهم من الخطايا ، ولا يركبهم الإثم ، ولا يلحقهم اللوم !

وذكرى جمعية الخناقين فى الهند من الذكريات المؤلمة المرعبة ؛ ويقال إنه لما ضيّقت الحكومة عليهم الخناق وجدت فى محاربتهم والقضاء عليهم ، لجأوا إلى الاستعانة بدس السم لضحاياهم حيناً من الزمن ، وكان آخر خنّاق يقتل من أجل ارتكاب هذه الجريمة

فى سنة ١٨٨٢ ، وبعض حوادث القتل المجهولة فى بلاد الهند من المحتمل – فى رأى بعض مؤرخى الجمعيات السرية – أن يكون القائمون بها من بقايا عباد هذه الإلاهة «كالى» المخيفة ، التى يصورونها حاملة فى جيدها عقداً من الجماجم البشرية مستطيلا متدلياً حتى ركبتيها .

جمعية الجاردونا

انطلق جنود الملك فرديناند الكاثوليكى ملك أرجون وقشتالة يطاردون فى التلال الموحشة والودى العميقة عصابات اللصوص والسلابين ، بعد أن أغضت العدالة عنهم سنوات طويلة ، وقد استيقظ ضمير الدولة بعد طول الرقاد ، فأصدر الملك الجبار أمره إلى جنوده باستئصال شأفة اللصوص وقطع دابر العصابات .

وكانت الجريمة الكبرى التى ارتكبتها عصابات اللصوص أخيراً هى رفضها أن تؤدى الضريبة للقساوسة ورجال مجالس التفتيش والخزينة الملكية ، وكانت عصابات اللصوص قد ملّت طلبات أصحاب السلطان الكبيرة ، فقد كانوا يتشاغلون عن جرائم اللصوص فى مقابل أن يفوزوا بنصيب الأسد مما يجمعه هؤلاء اللصوص بكدهم وسعة حيلتهم وإقدامهم على المكاره . فثار اللصوص وتمردوا وأمسكوا عن الدفع وساءهم أن تعترض الحكومة نشاطهم ، وتبذل جهدها للحد من حريتهم ، فمشى بعضهم إلى بعض ، وعقد رؤساؤهم اجتماعاً خطيراً فى أحد الأودية المنعزلة الوعرة المسالك وتمخض هذا الاجتماع الخطير فولد جمعية « الجاردونا » .

وقبل عهد الملك فرديناند بزمن طويل ، كانت عصابات الأشرار والمجرمين تجوب البلاد الإسبانية ، وتفعل الأفاعيل ، وترتكب الكبائر ، وكان أفرادها يختصون بقايا المسلمين فى إسبانيا بالنصيب الأوفر من النهب والسلب وسوء المعاملة ، ولما أراد الملك فرديناند أن يطرد العرب من إسبانيا ويقضى عليهم القضاء المبرم ، انضوى تحت رايته السلابون واللصوص والمجرمون وسفاكو الدماء ، وأقبلوا عليه من كل فج من فجاج إسبانيا ، ولم يقدر الملك خطورة الاستعانة بأمثال هؤلاء المجرمين الممسوخين ، وبعد انتصار الملك على العرب وإجلائهم عن غرناطة لم يفكر فى طريقة صالحة للخلاص من هؤلاء اللصوص والمجرمين وترك الأمور تجرى فى مجاريها . فعادوا إلى حالتهم السابقة لاشتراكهم فى معركة إبادة العرب واليهود ، وقد اكتسبوا فى ميادين الوغى خبرة ودربة ، ولذلك عادوا إلى سيرتهم القديمة ، وهم أعظم قوة وأشد بأساً ، وهكذا أصبح هؤلاء الصليبيون أحذق بالطعان وأدرب وأكثر عدداً وأحسن نظاماً ، والغريب من أمرهم أن الكثيرين منهم أصبحوا حماة مأجورين لليهود والعرب المدجنين [١] الذين ارتدوا عن دينهم حرصاً على أوطانهم وإبقاء على مصالحهم ،

---

(١) المدجنون أو أهل الدجن كلمة أطلقت على مسلمى الأندلس الذين دخلوا فى طاعة الملوك المسيحيين واعترفوا بهم

أو خشية الريب والمطاردة ، وكان هؤلاء جميعاً من الأغنياء الميسورين ، وقد أطلق عليهم الإسبانيون اسم « الخنازير »

وبإنشاء جمعية الجاردونا قوى أمر عصابات اللصوص والمجرمين وأصبح رجال العصابات لا يقلون شأناً ومكانة عن رجال مجالس التفتيش ، وكان لهم أصدقاء فى البلاط الملكى يعطفون عليهم ويشجعونهم ، ولذا انتعشت أحوالهم ، ونبه شأنهم ، واستحلس الناس الخوف منهم .

واتخذت الجمعية مدينة إشبيلية مقراً لها ، واتفق كبار أعضائها على وضع كلمات السر الخاصة بها وابتكار الرموز والإشارات المناسبة ؛ ووضع قواعد تنظيم الحفلات وطرائق الانضمام إلى الجمعية ووسائل تدريب الأعضاء وتشجيعهم أو معاقبتهم وتأديبهم ، وقد وضعوا للجمعية نظاماً صارماً دقيقاً ، ولذا كانت حملات النهب والسلب والإتلاف والإحراق والقتل التى تنظمها الجمعية تمتاز بدقة النظام ، وإحكام الخطة ، وتحقيق الأغراض المنشودة ، وحتى المتسولون فى العواصم الكبيرة كانوا لا يستطيعون مباشرة مهنتهم إلا بإذن من الجمعية .

كانت هذه الجماعة جمعية إجرامية محضة ، غرضها الأصيل هو الإجرام ، وكانت الجمعية مستعدة للقيام بأية جريمة لقاء مقدار من المال يتناسب مع حظ الجريمة من الصغر أو الضخامة ،

وكان فى قائمة جرائمها القتل والسرقة وتشويه الوجه أو بتر أحد الأعضاء أو شهادة الزور ، أو خطف الأطفال ، أو اختطاف النساء لأى غرض كان أو حمل أحد الخصوم إلى إحدى السفن وبيعه بيع الرقيق ، وحرق المنازل وأهراء المحاصيل ، وكان لكل جريمة من هذه الجرائم وأمثالها تعريفة معينة ، وكانت الجمعية تفى بوعدها ولا تقصر فى ارتكاب الجريمة المطلوبة متى تقاضت الثمن ، وكانت مجالس التفتيش من أحسن عملاء الجمعية ، فقد دلت سجلات الجمعية التى عثر عليها أن مجالس التفتيش قد دفعت للجمعية ما يربو على ربع مليون من الفرنكات فى خلال سنوات قلائل للقيام ببعض الجرائم الخارجة عن نطاق أعمال مجالس التفتيش الرسمية ، مع اتساع نطاق تلك الأعمال وشمولها ، ولكى تؤثر الجمعية فى نفوس العامة وتستميلهم أوجدت أسطورة مضمونها أن السيدة مريم العذراء زارت فى جبال الشارات المتأبدة ناسكاً طاعناً فى السن اسمه « أبو لـيّنير » وبعد أن مسحته بالزيت وأعطته زراً منتزعاً من ثوب ابنها السماوى اختفت تاركة وراءها عبيراً عطرياً متضوعاً قوى الشذى وقد أوجد هذا الناسك جمعية الجاردونا بعد أن كسب لها الحق المقدس فى السرقة والقتل !

وقد جعلت الجمعية لأتباعها مراتب ودرجات ، فالمرتبة الدينية ــ وكانت تسمى مرتبة الماعز ــ كانت تشمل المسيحيين

الجدد الذين يتولون الأعمال الحقيرة ، وكانت المرتبة التى تسمو على ذلك هى مرتبة « الأستار » وهى مرتبة النساء الخادمات اللواتى كن يلتحقن بخدمة البيوت ليصبحن عيوناً للجمعية ، يزودنها بالأسرار المجهولة والمعلومات الخفية، وكانت الجمعية تتخذ النساء الجميلات أو الصغيرات السن شبكة لاستدراج الضحايا ، وتطلق عليهن اسم « الفاتنات » ، وتتخذ الشيوخ المسنين الحسنى السمت والظاهرى المهابة للتجسس فى الطرقات والكنائس لأن شعورهم البيض وما يبدو عليهم من وقار السن وهدوء الشيخوخة يبعد عنهم الشبهة ، ويدعو إلى الثقة بهم والاطمئنان إليهم ، وكان يطلق عليهم اسم المنافيخ » ، لأنهم كانوا يهمسون فى آذان رؤساء الجمعية بالأسرار النافعة والمعلومات المفيدة ، أما رجال الجمعية الذين كان يعتمد عليهم فى الهجوم على المسافرين وأمثال ذلك من الفعال فإنهم كانوا يطلقون عليهم اسم « المصارعين » ، ويتلو ذلك طائفة الرؤساء الكبار ، وعلى رأس الجمعية الرئيس الأكبر الذى يدين له الجميع بالطاعة ، ويصدرون عن رأيه ، وقد شاء الحظ الحسن لهذه الجمعية أن تجد لها مؤرخاً من أصدق الرواة وأعظم الكتاب وهو الكاتب الإسبانى العبقرى « سرڤانتيز » مؤلف رواية دون كيشوت الخالدة ، فقد وصف لنا هذا الكاتب الفذ فى إحدى قصص

كتابه المسمى « قصص مثالية » وهى القصة المسماة « رينكونيت وكورتاديلا » ، الكثير من أحوال هذه الجمعية وصفاً صادقاً دقيقاً يدل على قوة ملاحظته وسعة معرفته .

يحدثنا « سرڤانتيز » فى هذه القصة عن غلامين يافعين أحدهما فى الرابعة عشرة من عمره والآخر فى السابعة عشرة وهما غلامان خبيثان متشردان ، وقد تقاذفت بهما الفلوات ، حتى تلاقيا فى إشبيلية أشعثين أغبرين وأخذا فى ممارسة المهنة التى لم يتعلما غيرها ، وهى مهنة السرقة والاحتيال ، ولم يخف حضور هذين الغلامين اللامعين — رنكون وكورتادو — عن عيون غلمان إشبيلية الذين كانوا يحترفون السرقة مثلهما ، وقد استطاع أحد هؤلاء الغلمان أن يفاجئ الغلامين القادمين وهما يقومان بالسرقة والاحتيال ، وبدلا من أن يكشف أمرهما ويدل عليهما ويشهر بهما هنأهما لما أظهراه من براعة حيلة وخفة يد ثم وجه إليهما هذا السؤال وهو « هل سويتما الأمر مع السيد مونوپوديو وأديتما له الضريبة ؟ » فعجب الغلامان لهذا السؤال ، وأدهشتهما فكرة أداء ضريبة عن السرقات ، وبدا لهما فى هذا الأمر ما يثير الضحك ويبعث على الفكاهة ، ولكن زميلهما الجديد سرعان ما أوضح لهما حقيقة الأمر ، وبين لهما أنهما إذا كانا يرغبان حقاً فى البقاء بإشبيلية وممارسة السرقة والاحتيال فلا معدى لهما

عن تسجيل اسميهما عند السيد مونو پوديو ، وأنهما كلما أسرعا إلى ذلك كان ذلك أدعى لطول بقائهما ، ثم أشار لهما إشارة معبرة جعلت المعنى الذى قصده واضحاً جلياً ، واستبان لهما أن لصوص إشبيلية جميعهم يعدون السيد مونو پوديو أباً لهم ورئيساً لجماعتهم وحامياً لهم .

وعزم رنكون وكورتادو على أن يذهبا إلى مونو پوديو ويقدما له الطاعة ويقسما أمامه يمين الولاء ، ولما علم مونو پوديو بما أبداه الغلامان من براعة في السرقة والاحتيال وافق على إدخالهما فى الجمعية عضوين ممتازين ، وأعفاهما من أعمال السنة التجريبية التى كانت تفرض على الأعضاء المستجدين .

وكان مونو پوديو يضيف ما يقدمه كل عضو من أعضاء الجمعية إلى الرصيد المشترك الذى كان يكافئ منه الأعضاء حسب كفاية كل عضو ، وعلى قدر انتفاع الجمعية بأعماله ، ولُقّن الغلامان المصطلحات الخاصة بالجمعية ، ووقفا على قوانينها وشاراتها ورموزها ، وعرفا الفروع الأخرى لجمعية الجاردونا ، وعلما كذلك أن مقداراً كبيراً من دخل الجمعية مستمد مما يدفع لها لقاء قيام الأعضاء بطعن من يكلفون طعنه أو بإغراق من يعهد إليهم فى إغراقه ، أو بخطف من يدفع للجمعية ثمن خطفه ، أو بصفع من يرى الاكتفاء بصفعه على

وجهه ، وما إلى ذلك من الأعمال السارة الممتعة !

وكانت العلاقة بين الجمعية وبين الشرط علاقة ودية للغاية ، وبطبيعة الحال كانت الجمعية تدفع ثمناً لهذه العلاقة الأكيدة الودية ، وكانت الجمعية لذلك لا تغفل عن مساعدة القضاة والموظفين لتضمن الاستعانة بهم ، وكان جزء كبير من الدخل ينفق من أجل روح المتوفَّين من أعضاء الجمعية ، وكانت الجمعية تلزم كل من اشترك فى حملة من الحملات الكبرى الناجحة أن يتنازل عن مبلغ من المال لشراء زيت لإشعال المصابيح فى ضريح أحد القديسين ، وكان ما يجمع من أمثال هذه المبالغ يترك ليتصرف فيه الرئيس حسب ما يوحيه إليه ضميره .

وكان للجمعية فروع فى برشلونة وقرطبة وطليطلة وغيرها من عواصم إسبانيا الزاهرة ، وكان مقر الجمعية فى إحدى هذه العواصم يضارع قصور ملوك ذلك العصر فى الروعة والفخامة .

وقد عنيت الجمعية بكتابة حوليات تسجل فيها أعمالها واتفاقاتها الهامة ، وكانت هذه الحوليات وثيقة تاريخية ومرجعاً للاطلاع على أعمالها ، وقد انتفعت بهذه الحوليات الحكومة الإسبانية فى سنة ١٨٢١ حينما استولت عليها ، وبدأت فى محاكمة رجالها ، وقد كان فرانسيس كورتينا الذى وجدت فى داره هذه

الوثائق والكتب والمراجع آخر رؤساء هذه الجمعية التى لم تكد تحتفل بمضى ثلثمائة سنة على وجودها وتوفيقها فى عالم الإجرام حتى أصابتها الضربة القاضية .

ونجحت الحكومة الإسبانية هذه المرة فى الخلاص من الجمعية وتوج القضاء نجاحها ، ففى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٢٢ سيق إلى المشنقة رئيس الجمعية الأكبر الأخير ، وستة عشر من الرؤساء البارزين ، وأعدموا فى سوق إشبيلية .

وقد قضى بذلك على هذه الجمعية الخطيرة وطويت صفحاتها الحافلة بالجرائم البشعة والمنكرات المستفظعة .

جمعية ألمافيا

نشأت هذه الجمعية فى جزيرة صقلية الجميلة الساحرة ، ولما كملت روية وعزيمة أصبحت من أعجب الجمعيات السرية التى عرفها التاريخ .

وهذه الجمعية بقوانينها ومجالس قضائها وشرطتها وجواسيسها وجامعى الضرائب لها وأساليبها فى معاقبة من يتصدى لمنافستها وخوف الأهالى منها لم تصبح مجرد دولة فى داخل الدولة ، وإنما أصبحت دولة فوق الدولة .

ومع ذلك كان ينقص هذه الجمعية بعض مقومات الجمعية السرية ، فلم يكن لها فى غير المناطق المحلية الخالصة والظروف الاستثنائية رؤساء مختارون ، ولم يكن لها علامات سرية أو شارات يتعارف بها أعضاؤها ، ولا حفلات تقام لاستقبال الأعضاء الجدد ولا قواعد متبعة لقبول الأعضاء وإلحاقهم بالجمعية ، ومتى صحت عزيمة العضو على دخول الجمعية وكان له نصيب من الشجاعة والإقدام وحمل الأسلحة اللازمة فإنه يصبح عضواً عاملا فيها بغير شرط ولا قيد ، وإذا فقد هذه

الصفات والمؤهلات طرد من الجمعية أو قتل ، وكان الرؤساء في هذه الجمعية يشقون طريقهم بالعنف والقوة ويفرضون أنفسهم فرضاً ، وفى توزيع الغنائم والإسلاب كان الجرىء المقدامة يفوز بالنصيب الأوفر .

وقد تكونت الجمعية فى بادئ أمرها من الحراس المسلحين الذين كان يتخذهم ملاك الأرض لحماية أنفسهم ، وبسط نفوذهم ، والمحافظة على أملاكهم ، وفى مطالع القرن التاسع عشر تبدد شمل جيش الإقطاعيين المكون من هؤلاء الحراس المسلحين ، ولكن هؤلاء الحراس عاشوا بعد ذلك ومنهم نشأت هذه الجمعية ، ولما التجأ بلاط نابولى إلى صقلية فراراً من جيش نابليون ، امتلأت الجزيرة بهذه المناسر والعصابات ، واتخذ الملك من بعض رجال هذه العصابات حرساً يدفع لهم من ماله الخاص ، ويعتمد عليهم فى المحافظة على الأمن فى الجزيرة ، وقد تغلب رجال حرس الملك على غيرهم من لصوص الجزيرة ومجرميها ، واحتكروا وحدهم اللصوصية والإجرام ، وقويت شوكتهم وصار الناس ينظرون إليهم بعين الإعجاب والخوف ، وأصبح أعيان الجزيرة يدفعون لهم ضريبة الحماية وحفظ الإمن ، وظلت الجمعية نافذة الكلمة مرهوبة الجانب حتى شهر مايو سنة ١٩٢٤ ، ففى أحد أيام ذلك الشهر ورد الجزيرة السنيور موسولينى وألقى فى مدينة بالرمو

خطبة من خطبه الحماسية الملتهبة وهدد فيها الجمعية بالحديد والنار .

وكان كل صقلى على وجه التقريب عضواً فى الجمعية إما باشتراكه فيما تجمعه من السرقة والتهريب والقتل وحملات الشتائم وتشويه السمعة ، وإما بدفع ضريبة الحماية للجمعية ، ومما ساعد على نجاحها أن سكان صقلية استهدفوا طويلا للظلم والطغيان ، ولذلك نشأت عندهم تقاليد حماية الثائرين المتمردين وإخفاء حركاتهم وكتمان أخبارهم ، وصار تحدى الحكومة وعدم التعويل عليها فى صيانة العدالة والمحافظة على القوانين والاعتماد على أنفسهم فى ذلك من الصفات الملازمة لهم ، وكان الذى يخالف هذه التقاليد يصبح مضغة فى الأفواه ويفقد سمعته وجاهه ومكانته فى المجتمع الصقلى ، ويقاطعه الناس ويتجنبونه ، ويحل به العقاب والاضطهاد ، ويذوق ألوان العذاب ، وكان ضحايا جمعية المافيا يلتزمون الصمت والصبر على الهوان بغير تذمر ولا شكوى ، وذلك نزولا على حكم التقاليد من ناحية ، ومن ناحية أخرى يأساً من العدالة وقدرة الحكومة على الانتصاف لهم ، وكانوا يمتنعون عن تقديم الأدلة والقرائن أو يقدمون أدلة زائفة وقرائن مضللة ، خشية بأس الجمعية واحتراماً للتقاليد ، وإبقاء على السمعة الحسنة والشرف الرفيع !

وكانت مؤامرة الصمت هذه توغر صدر الحكومة وتشل يدها وتقعد بها عن أداء واجبها ، وكان الأمر على ما فيه من هم ونكد للحكومة لا يخلو فى بعض الأحيان من الفكاهة المسلية ، فقد اتفق مرة أن سرق بغل أحد المزارعين الصقليين ، وعرضت الشرطة على الرجل عدداً من البغال المسروقة ليدل على بغله من بينها ، ولكن خوف الرجل من انتقام الجمعية جعله يحلف أن بغله ليس من البغال المعروضة ، وذلك بالرغم من أن البغل أظهر السرور حينما سمع صوت صاحبه ، ولما أطلق الشرطة البغل فى الليل بظاهر القرية اتجه البغل إلى منزل المزارع ، وفرحت زوجة الرجل وأولاده بعودة البغل إلى دارهم ! ولكن المزارع رغم ذلك أصر على إنكاره ، زاعماً أن البغل ليس بغله ! والظاهر أن التجارب المرة التى مرت بهذا المزارع المسكين جعلته يصر على إنكاره هذا الإصرار الذى يثير الضحك ، وعين الذئب الطائرة تعلم الناس الكثير من ضروب الحكمة ! فقد كان هذا المزارع يعلم قصة مزارع آخر كان عائداً إلى قريته وهو يسوق أمامه قطيعاً من الغنم ، فلقيه أربعة رجال من أعضاء جمعية المافيا فاختطفوا شاة وأشبعوا صوفها بزيت البرافين وأشعلوا فيه النار ، وبعد أن ارغموا الراعى المرعوب المرتعد الفرائص على مشاهدة مصرع شاته ومصيرها القاسى مثلوا به تمثيلهم بالشاة ، وكان

الذين ينالهم أذى الجمعية وتحل بهم نقمتها فتنهب أموالهم وتسرق أمتعتهم يجدون الالتجاء إلى الجمعية وكسب رضاها بالمال أهون عليهم وأضمن لهم من الالتجاء إلى الحكومة ، وقد آثرت فتاة كانت خادمة فى منزل أحد أعضاء الجمعية الانتحار على أن تفشى سر سيدها ، وتذكر ما تعلمه عن حركاته المريبة وتعرض نفسها لانتقام الجمعية .

وقد حاول غاريبالدى بطل الاستقلال الإيطالى المعروف أن يقضى على هذه الجمعية ولكنه أخفق فى ذلك ، ولم يكن نفوذ هذه الجمعية مقصوراً على القرى والريف ، وإنما كان يشمل كذلك المدن ، فكان العضو فى الجمعية يستطيع أن يجرد خنجره الصغير ويطعن به فريسته فى إحدى الحدائق العامة ويختفى دون أن يتعرض له أحد من الذين يتبخترون فى الحديقة ، أو يقتفى أثره أو يستنجد بالشرطة ، ويدلهم عليه ، وحتى لو رآه الشرطى بعينه وهو يباشر الاعتداء على فريسته فإن الحاضرين يمتنعون عن أداء الشهادة ، أو ينكرون ما رأته عيونهم ، وربما تطوع بعضهم ليشهد بأن الجانى كان فى مكان بعيد عن مكان الحادثة أو أنه كان صديقاً للقتيل ، وكان أغلب الذين يدانون وتثبت عليهم الجريمة ويقدمون للموت ليسوا هم القتلة الأصليين ، وإنما هم أفراد أرادت الجمعية أن تزيلهم من طريقها ، وفى

بعض الحالات الهامة كانت جمعية المافيا تهيئ وسيلة الهرب للمجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ، لكى تتولى هى بنفسها إعدامهم .

على أن الجمعية فى معظم الحالات كانت تبالغ فى الاحتياط حينما تحكم بالإعدام على أى إنسان ، وكانت تختار لتنفيذ الحكم رجلا لا تعلق به الشبهة ، ولا تضع فى يده السلاح إلا فى اللحظة الأخيرة ، فإذا طعن الطعنة المصمية أو أطلق الرصاصة القاتلة امتدت الأيدى الخفية إلى السلاح الذى يحمله وعملت على إخفائه ، وباختفاء السلاح وتزوير الشهود يهون الأمر ، ويزول الخطر ، ويحظى القاتل بالبراءة .

وقد أصبحت الجمعية فى الجزيرة على ممر الأيام تشبه من بعض الوجوه شركات التأمين ، يقدم لها الناس قدراً من المال منجّماً فى مقابل حمايتهم من الجرائم على اختلاف أنواعها ، وكان الأغنياء والفقراء على السواء يؤدون هذه الضريبة ، وكان الذى يؤدى الضريبة يظفر بالأمن الذى لاتستطيع الحكومة أن تفيئه ظله ، وإذا وقع عليه أى اعتداء لم تقره الجمعية فإنها تبادر فى الحال إلى الانتقام له وإعادة الطمأنينة إليه ، وإذا تأخر أحد الناس عن تقديم القسط المطلوب منه فى الميعاد المعهود فإنهم يذكرونه به بطريقة مقبولة ، فإذا أصر على المماطلة تبدأ

الجمعية فى معاقبته بإغراق حديقته أو بإتلاف كرومه أو بإحراق داره ، ويتبع ذلك فى النهاية قتله الذى يتأخر قليلا ، ولكنه يكون أمراً محتوماً وقضاء لا مردّ له ، وذلك كله يمكن تجنبه بدفع الأقساط فى مواعيدها المعهودة بغير تردد ولا إبطاء ، وكان تحرى رجال جمعية المافيا الصدق فى وعدهم وإيعادهم يجعل الناس يحتملونهم ويثقون بهم ويأمنون شرهم متى قدموا لهم الإتاوة المعلومة .

وبعد الحرب الكبرى الأولى ساءت أحوال الجمعية ، وتطرق إليها الضعف ، وشاع فيها الفساد ، وأصبحت أعمالها مطبوعة بطابع الطمع والجشع والخيانة والغدر ، ومل الناس وجودها ، وضاقوا بها ذرعاً ، ولكنهم كانوا برغم ذلك لا يزالون يخشون بأسها ، ولا يجدون من القانون الحماية الكافية ، ويعتقدون أن من العبث الاحتماء بالشرطة ، واحتملوا الخطب صامتين ، ولم يجدوا نفعاً فى الالتجاء إلى رؤساء الجمعية كما كانوا يفعلون من قبل ، ولكن ساعة انفراج الأزمة وزوال الكرب كانت قد حانت ، فالاختلال الذى طرأ على أحوال الجمعية أتاح الفرصة لموسولينى للقضاء عليها ، فبعد أن تسلم مقاليد الحكم فى إيطاليا وفرض عليها نظامه الديكتاتورى واطمأن إلى مكانته نزل فى مايو سنة ١٩٢٤ بصقلية ووعد سكان صقلية باستتباب الأمن واستقرار

النظام، قائلاً : « إن الخمسة الملايين الوطنيين الصقليين الذين تلزمهم بدفع الضرائب مئات قلائل من المجرمين وتسلب أموالهم وتعبث بشرفهم وتنتهك حرمتهم لن يعرفوا بعد الآن الاضطهاد والعسف » .

واستدعى موسوليني شيزاري موري حاكم پالرمو ، وكان قد اشتهر بقدرته على تناول مشكلة جمعية المافيا ، فعقد موري العزم على مهاجمة الجمعية فى أمنع معاقلها ليقتنع أهل الجزيرة بأن الحكومة أقوى ساعداً وأعظم صولة من الجمعية التى طال استبدادها بالأمر فى الجزيرة ، ونجاح الحكومة فى هذه المحاولة يجعل سكان الجزيرة ينضمون إلى جانبها و يناصرونها فى مهمتها و يساعدونها على توطيد الأمن فى الجزيرة ، وفضلاً عن ذلك فإنه يكشف عن جرائم أعضاء الجمعية المستورة ، و يمكن الحكومة من إخضاعهم للقانون و إنزال العقوبة اللازمة بهم ، وقد كان مصدر قوة الجمعية شيئان وهما خوف أهالى الجزيرة وتهاون الحكومة و إهمالها ، ومتى نشطت الحكومة وأطرحت التهاون والإهمال زال الخوف ، وانحلت عقدة الألسنة ، وأمكن وضع حد لجرائم الجمعية .

وكان معقل الجمعية الحصين يقع فى سلسلة الجبال الجميلة المتأبدة الممتدة بين مسينا و بالرمو ، وكانت الجمعية مسيطرة

سيطرة تامة على القرى الواقعة فى سفوح هذه الجبال ، وكانت الرحلة إليها شاقة تعترض السائر خلالها الأجراف الشاهقة والهاويات العميقة ، ويعابيب الماء ، ولا تأمن فيها اعتداء كمين أو هجوماً مفاجئاً من الخلف . وكانت فى وسط هذه المنطقة الوعرة قرية « جانجى » الواقعة فوق جبل بعيد منعزل ، وكانت البيوت الواقعة على جانب الجبل تشرف على جزيرة صقلية برمتها ، ومعظمها يمكن الدخول إليه من طريق أعلى ومن طريق آخر أسفل ، ولها بابان باب من ناحية سقفها وباب آخر من الطبقة السفلى من البيت ، والكثير من هذه البيوت كان يربط بعضها ببعض ممرات تحتية محفورة فى الجبل ، وبها مخابئ وأبواب سرية مختبئة خلف المرايا وتحت الحصر .

وبدأت الحملة الحاسمة بمناوشات بعيدة عن قرية «جانجى» وكانت طوالعها لا تختلف عن الحملات السالفة التى كانت تترك رجال الجمعية غير مكترثين ؛ ولكن الحركة أخذت تشتد وتقوى فى مدى أيام قلائل ، ودنت الحملة من « جانجى » ، وقبل أن يفطن رجال الجمعية لقوة الحملة ويستشعروا عنفها ، كانوا قد أحيط بهم من كل ناحية ، وأخذت عليهم المسالك والمنافذ ، وأخذ الشرطة يحتلون المنازل والدساكر ، ولم يبق أمام رجال الجمعية سوى الاعتصام بقرية جانجى نفسها ، ولما علم

مورى بذلك من عيونه وطلائعه أرسل قوات أخرى لمحاصرة جانجى ، وطوقت القرية تطويقاً تاماً ، وقطعت أسلاك التليفون والتلغراف بها ، وأرسل مورى منادياً من قبله يعلن أن على المختبئين أن يخرجوا من مكامنهم ويسلموا أنفسهم فى خلال اثنتى عشرة ساعة ، وبعد انقضاء هذه الفترة ستتخذ إجراءات شديدة حاسمة ، وعمل مورى على أن يظل المختبئون منعزلين منفردين ليفيد من تخويفهم وإرهابهم ، وكان يقصد ألا يهزمهم فى ميدان الحرب لأن هزيمتهم فى ساحة الجهاد تحفظ لهم مكانتهم ، وهو يحرص على أن يكشف للناس ضعفهم ، ويظهرهم فى مظهر الجبناء المستسلمين ، ويجعلهم أضحوكة للعالم ، وأخذ رجال الشرطة يدخلون البيوت بيتاً بيتاً ويذبحون الماشية المسروقة ، ويبيعون لحمها للناس بأسعار مضحكة ، وكان الخوف ما يزال يمنع الناس من التقدم لشرائها ، ولكن هذه الأنباء بلغت المختبئين ، وكان لها فى نفوسهم وقع شديد ، وأخذ الكثير من الأشياء المسروقة المحفوظة فى منازلهم ، وبيعت بأثمان زهيدة ، وأخذ أهل الجزيرة يسخرون من هؤلاء الأبطال المعروفين بقوة العزم وشدة البأس الذين تنهب بيوتهم ويباع ما بها بأبخس الأثمان وهم مع ذلك لائذون بالمخابئ شأن الجبناء المستضعفين ، وأخذ هؤلاء الرجال الذين ملأوا نفوس الناس خوفاً ورعباً وأراقوا دماءهم وأجروا

دموعهم فى الاستسلام وإلقاء السلاح ، والكف عن المقاومة ،
ولم يحتفظ بإبائه وشممه سوى الزعيم القديم الأبيض الذوائب
« جيتانو فاريلّو » ، فقد أرسل لمورى رسالة يعده فيها بشرفه بأنه
سيسلم نفسه فى قاعة استقبال عمدة القرية ، وسار فى خطوات
رزينة رافع الرأس مشيع الفؤاد إلى دار العمدة ، وأسلم هناك
عصا كبيرة كما يسلم قائد الجيش عصاه بعد هزيمة جيشه ،
وقد شنق نفسه بعد ذلك فى السجن ليكون موته بيده لا بيد عمرو
كما صنعت الزباء قديماً .

وفر رجل آخر من رجال الجمعية محاولاً الاعتصام بالجبال ،
فحدث ما دل على أن الحملة قد وفقت فى تحقيق غرضها ، فقد
سار فى أثره جماعة من الأهالى حاملين السلاح وتبعوه فى مخارم
الجبال وغيرانها ، واضطروه إلى التسليم ، وأحضروه مستخزياً
متضائلاً بعد أن كان يتوعد بالانتقام ويشمخ بأنفه ويصعر خده ،
واستسلم سائر أعضاء الجمعية بين ضحكات المزارعين الساخرة
وسرورهم وفرحهم ، وانطلقت الألسنة المحبوسة وشدت أطرافها
العيون التى كانت كليلة مغضية ، وامتلأت سيارات الحكومة
بمجرمى الجزيرة وشذاذها ، وجمعت الأدلة التى تدينهم ، ولقى
كل مجرم العقاب الرادع ، وأقسم الأعيان والمزارعون يمين الولاء
للملك والقانون وطاعة الدولة ، ونادى قوم فى كل مكان بالجزيرة

بسقوط جمعية المافيا ، وتطهرت أودية جبال الجزيرة وأدغالها من
هذا الوباء القاتل ، وقضى على قوة المافيا بعد هذه السيرة غير
العطرة ، وبهذا الأسلوب الحاسم الذى يمتاز به الحكم الديكتاتورى
ولعله مزيته المفردة وفضله الأوحد .

جمعية الكامورّا

كانت جمعية الكامورا جمعية إجرامية خالصة ، وهى جمعية عجيبة النشأة ، وقد كان الباعث على وجودها ما كان يعانيه نزلاء سجون « نابولى » من سوء معاملة الحراس وقسوتهم واضطهادهم فقد ألف هذا الاضطهاد بين قلوب المجرمين ووحد صفوفهم وأغراهم بإنشاء هذه الجمعية ليدفعوا عن أنفسهم أذى السجانين ويكيلوا لهم الصاع صاعين ، وكان أعضاء الجمعية بطبيعة الحال من اللصوص والسلابين والفتاك والصعاليك وسائر المجرمين على اختلاف أنواعهم وتفاوت درجاتهم فى الإجرام ، وكانت الجمعية تتقاضى ضريبة من الفقراء لتحمل على الأغنياء وتشوه سمعتهم وتحط من قدرهم وترغم أنوفهم ، وكانت الجمعية مستعدة للقيام بأية جريمة جلت أو دقت . ولكل جريمة — من سرقة الأموال إلى اختطاف الأطفال — سعرها المحدد فى القائمة .

وقد بدأت هذه الجمعية أعمالها سنة ١٨٢٠ فى داخل سجون مدينة نابولى ، وكان يحكمها فرع من أسرة البوربون عرف بسوء الحكم والطغيان والاستبداد والرجعية ، وقد ظلت الجمعية محصورة

فى نطاق السجون مدة عشر سنوات ، وعز على نزلاء السجون أن ينفرط عقد الجمعية بعد مغادرتهم السجن ، فحافظوا على بقائها ، وأرسوا قواعدها ، ووطدوا مكانتها ، وقوى نفوذها حتى شمل مملكة نابولى بحذافيرها ، وأصبحت الجمعية وسيلة انتقام فى يد كبار المجرمين ، وفريق من السياسيين غير المترددين ، ولم تجد الجمعية من يحسم داءها ويقمع إيذاءها ، فملأ الخوف منها نفوس الناس ، وكان القتل عقوبة من يستهدف لغضبها ويستدعى نقمتها .

وكان المجرمون حينما يدخلون السجن يقترب منهم أحد أعضاء الجمعية ويطالبهم بدفع نقود لمصباح العذراء ، وكان العقلاء من المساجين يدفعون ضريبة لعضو الجمعية عن الأكل والشرب والتدخين ، ويعطونه جزءاً من النقود التى يرسلها إليهم أصدقاؤهم أو أقاربهم ، وكان السجين يضمن بذلك الحماية من اعتداء السجانين والمساجين وإذا أمسك عن أداء هذه الضريبة تعرض للضرب حتى الموت من نزلاء السجن ، واستهدف لسوء معاملة حراس السجن التى كانت فى أغلب الأوقات تتجاوز حدود الاحتمال ، وكان بين نزلاء السجن من يؤثر الانضمام إلى عضوية الجمعية ، وكان عليه فى هذه الحالة أن يثبت أنه أهل للمحافظة على الأسرار وأنه لا يخشى السكين ، وتقام لذلك حفلة

فى إحدى ردهات السجن ، ويغض الحراس عنها الطرف ، ويجتمع فيها جماعة من القتلة شاهرى السكاكين ، وتوضع قطعة من النقود على الأرض ، وعلى طالب الدخول فى الجمعية أن يتناول هذه القطعة من الأرض وقد أخذت طعنات السكاكين الحادة تتوالى على الأرض دراكاً حولها ، وفى بعض الأحيان كانت تصيب الطعنات يد العضو الجديد وهو يتناول قطعة العملة ، وفى أحيان أخرى كان يرفع العضو قطعة العملة من الأرض دون أن يصاب بسوء ، وهو فى الحالين يعد ناجحاً فى التجربة الأولى .

وفى خارج السجن يجوز الأعضاء اختبارات أخرى شديدة قاسية ، وإذا وفق المرء فيها أصبح عضواً له خطر فى الجمعية . وكان عضو الجمعية يعتمد على ثلاثة أشياء : جرأة القلب وقوة الساعد والبراعة فى استعمال السكين الحاد ، وكان العضو الذى يثبت كفايته تقام له حفلة يعترف له فيها بأنه عضو عامل فى الجمعية وفى هذه الحفلة يجتمع الأعضاء صامتين حول منضدة ، ويضع رئيس الجماعة على المائدة خنجراً ومسدساً وكأساً بها نبيذ مسموم ، وحينما يدخل العضو الجديد ترمقه عيون الحاضرين ويكشف عن ذراعه ويتناول الرئيس مبضعاً ويدخله فى أحد عروقه الذراع العارية ويرفع العضو يده اليمنى الملطخة

بالدم ، ويقسم يميناً وثيقاً بالمحافظة على قوانين الجمعية ، وصيانة أسرارها ، ثم يرفع كأس النبيذ المسموم إلى شفتيه ، ويصوب المسدس إلى رأسه ويسدد الخنجر إلى صدره ، وفى كل مرة يوقفه الرئيس بإشارة منه ، ومعنى ذلك أنه قد أثبت رغبته فى وضع حياته تحت تصرف رئيسه ، ثم ينحنى أخيراً ويجثو على ركبتيه ، ويتناول الرئيس الكأس ويحطمها على الأرض ، ويطلق المسدس فى الهواء ، ويأخذ الخنجر من العضو الراكع ويدخله فى غمده ، وذلك كله دليل على الثقة بالعضو الجديد .

وكان السكين السلاح المفضل عند أعضاء جمعية الكامورّا ، وكان الأعضاء كثيراً ما يتدربون على مبارزة بعضهم البعض مبارزة ودية ، وكانت المبارزة تنتهى حينما يسيل الدم من ذراع أحد المتبارزين ، وكان المتبارزان يتعانقان فى أعقاب ذلك ، وعلى الأعضاء أن يحفظوا عن ظهر قلب مصطلحات الجمعية ، وكانت المفردات التى يجب على العضو معرفتها لا تقل عن خمسة آلاف كلمة ، وكانت الفريسة مثلا يطلق عليها اسم « الحمل » ، والبندقية كانت تسمى « الفم » ، وكان بالجمعية قسم خاص للتدريب على النشل وإتقانه ، وكانت تستعمل فى هذا القسم الخاص آلة لمط الأصابع حتى تصبح متساوية فى الطول .

وفيما بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ اصطبغت الكامورّا بالصبغة السياسية ، فقد حاول المتآمرون ضد الحكومة استمالة جمعية الكامورّا إلى صفوفهم ، وقد ساعدتهم الجمعية بعض المساعدة ، ونجح السياسيون فى إرغام الملك فرنسيس الثانى على إعلان الدستور فى يونيو سنة ١٨٦٠ وفتحت السجون حينذاك ، وخرج منها جماعة من جمعية الكامورا واضطر رئيس الشرطة إلى الاستعانة برجال الكامورا لإنقاذ نابولى من الغوغاء الذين أخذوا فى التظاهر من أجل الملك . وقد نجح رجال الكامورّا فى المحافظة على الأمن والنظام بعد أن أخفق فى صيانتهما رجال الشرطة ، وتكون من رجال الجمعية حرس مدنى حتى دخل غاريبالدى المدينة ، ولكن رجال الكامورّا لم يستطيعوا التخلى عن منازعهم السيئة ، واعتيادهم السلب والسرقة والاغتصاب فاشتغلوا بتهريب السلع لإعفائها من الرسوم الجمركية وسيطروا على الانتخابات العامة والاختيار لوظائف الدولة وأخذوا يستغلون كل مناسبة للكسب الحرام ، فاضطرت الحكومة إلى القيام بحملة لمقاومة الجمعية ووضع حد لهذه الأعمال ، واعتقلت فى يوم واحد ثلثمائة من أعضائها ، ونفت أكثرهم إلى جزائر البحر الأبيض ، ولكنهم سرعان ما عادوا من المنفى يهتفون بسقوط رئيس الشرطة الذى أظهر حزماً وعزماً فى مقاومة الجمعية .

وظلت الحرب ناشبة بين الحكومة والجمعية . وكان الخوف الشديد الذى استولى على النفوس من أفراد هذه الجمعية يجعل مهمة الحكومة فى مقاومتها شاقة ، واستشرى شرها ، وأرهقت الناس إرهاقاً شديداً ، حتى اجتمعت كلمتهم على ضرورة التخلص من قبضتها ، وجاء السنيور موسولينى بديكتاتوريته الصارمة فأتم القضاء على الجمعية وأراح الناس من شرها وجرائمها .

الجمعيات السرية الألمانية

الجمعيات السرية فى أى مصر من الأمصار تمثل طبائع سكانه ، وتتسم بميسمه القومى ، وتوضح لنا جوانب من تاريخهم هامة ، والأوقات التى تصلح فيها أداة الحكم وتستقر الأمور وتسير العدالة فى مجراها يقل فيها ظهور الجمعيات السرية لانتفاء أكثر البواعث التى تدعو إلى تأليفها ، أما أزمنة الانتقال وعهود الفتن والثورات والقلاقل والاضطرابات وفساد الحكم وطغيان الدولة أو ضعفها وتخاذلها ، فإنها تمتاز على الدوام بكثرة وجود الجمعيات السرية .

وتاريخ ألمانيا يوضح لنا هذه الحقيقة ويكشف عنها ، ففى كل أزمة من الأزمات التى انتابت الشعب الألمانى كانت تظهر الجمعيات السرية ، وفى الأزمنة العصيبة التى كانت تتعقد فيها الأزمات وتتحرج الأمور ، ويشتد الكرب والضيق ، كانت تتكاثر الجمعيات السرية بصورة ملحوظة ، فإذا انفرجت الأزمة واستفاق الشعب من غمرتها ضعف شأن الجمعيات السرية وقل الإقبال عليها وفقدت تأثيرها .

ومن أقدم الجمعيات السرية الألمانية جمعية القم المقدسة ، وقد ولدت هذه الجمعية فى غمار الاضطراب والفوضى ، ومن مزاياها أنها عملت على تقليم أظافر الفوضى وإزالة الاضطراب وأعادت الأمور إلى نصابها ، وسوغت وجودها بكسب عطف العقلاء الراجحى التفكير .

ويرجع تاريخ هذة الجمعية إلى منتصف القرن الثالث عشر فقد ساءت فيه الأحوال ، وأصبح الأمر يتطلب العلاج العاجل الحاسم ، وبخاصة بعد وفاة الأمبراطور فردريك الثانى ، الذى لم تعش به أسرة الهوهنشتاوفن إلا سنوات قلائل ، طويت بعدها صفحتها ، واستغل سادة الإقطاع ضعف الإمبراطورية واستبدوا بالأمر ، واستأثروا بالسلطة ، وطغوا وبغوا وعسفوا الناس وعنفوا بهم ، ولم تعقد المحاكم الإمبراطورية جلساتها للنظر فى المظالم ، وفرض سلطان القانون وساد الشعور بأن كل من يستطيع الإقدام على شىء لا يجد ما يمنعه ، ولذا وجد ذوو الأخطار من سكان المدن فى مقاطعة وستفاليا أن يكونوا جمعية القم المقدسة ، وكان الغرض الذى ترمى إليه الجمعية هو مفاجأة المجرمين والقبض عليهم ومعاقبتهم قبل أن يستشعروا الخطر ، ويأخذوا الحيطة ؛ وإيجاد سلطة قوية مرهوبة الجانب يشعر بها ويخشى بأسها . وكانت الجمعية تعتصم بالسرية والاستتار والتخفى

لتستعين بالكتمان على تحقيق أهدافها وتنزل العقوبة السريعة بمن يستحقها ، وكان للأعضاء لغة سرية يتفاهمون بها ، ورموز وعلامات وشارات للتعارف ، ونص اليمين الذى كان يقسم به العضو له دلالته فهو يقول « أقسم بشرفى المقدس بأننى سأصون أسرار الجمعية المقدسة وأخبئها حتى عن الشمس والقمر ، ولا أبوح للرجال ولا للنساء ولا للزوجة ولا للأولاد ، ولا للقرية ولا للحقل ، ولا للحشيش ولا للحيوان ، وأضن بها على العظيم والصغير ، فلا الألم ولا المال ولا الأباء ولا أى شيء خلقه الله يجعلنى أحنث فى يمينى » .

وكانت الجمعية تعقد اجتماعاتها فى سراديب تحت الأرض ، وفى الغيران الواهية الضوء ، وتحت أشجار الغابات ، وكانت تختار دائماً ما بعد الفجر لعقد هذه الاجتماعات .

وكان يتقدم أحد كبار الأعضاء بالاتهام أمام المحكمة المعقودة ، فإذا كان المتهم عضواً فى الجمعية له مكانته ، تلقى أمراً بضرورة المثول بين يدى المحكمة فى الجلسة السرية التالية ، وإذا تأخر عن الحضور حولت القضية إلى القضاء السرى ، وإذا لم يظهر العضو أمام مجلس هذا القضاء حكم عليه فى الحال وعد خائناً .

وكانت تكتب الدعوات على الرق ، ويوضع عليها سبعة أختام ، وفى كل حالة كانت ترسل ثلاث دعوات ، وكان يسمح للدعوة الأولى بستة أسابيع وثلاثة أيام ، وللدعوة الثانية بستة أسابيع ، وللدعوة الثالثة بستة أسابيع وثلاثة أيام ، فإذا تجاهل المدعو هذه الدعوات الثلاث فإن على المتهم أن يقدم سبعة شهود لا ليثبت الجريمة على المتهم وإنما ليثبت صدقه وأمانته ، ومتى أيدت التهمة بهذه الطريقة حكم على المتهم حكماً غيابياً ، ومتى صدر الحكم نفذ فى أسرع وقت مستطاع ، وأعلن أن الرجل طريد العدالة ، وأمر ثلاثة من أعضاء الجمعية المتقدمين بشنقه على أقرب شجرة إذا صادفوه فى الطريق ، وإذا ظهر المتهم رداً على الدعوات التى وجهت إليه فإن له الحق فى استدعاء ثلاثين شاهداً ، وله الحق كذلك فى رفع الأمر إلى محكمة القضاء الإمبراطورى التى تعقد سراً فى دورتموند ، ولكن إذا خسر القضية فإنه يشنق فوراً .

وكان الذى يحكم عليهم غيابياً فى العادة لا يعرفون الحكم الذى صدر ضدهم ، وكان أى عضو من أعضاء الجمعية يفضى لهم بالسر يستهدف لخطر القتل ، بل كان مجرد الإشارة إلى الحكم أو الكناية عنه والتلويح به ممنوعاً منعاً باتاً ، وكان يعطى للمتهم وثيقة مختومة تخول له حق المساعدة من أى عضو من

أعضاء الجمعية أينما يجد المتهم وفى أى وقت يراه ، وإذا كان المتهم من كبار المجرمين والأشقياء عهدت الجمعية إلى جماعة من رجالها فى معاقبته . ولكل فرد من أفراد هذه الجماعة حق طلب المساعدة من أى عضو من أعضاء الجمعية ، يرى ضرورة الاستعانة به ، وإذا قاوم المتهم فإنه يقتل طعناً بالخناجر ، ويترك فى جثته خنجر ، دلالة على أن جمعيته هى التى تولت قتله ، وإذا شنق يترك سكين معلق بالشجرة .

وأصبح الناس فى ألمانيا يخشون جماعة القم أكثر مما يخشون الإمبراطور ، وكان حكم تلك المحاكم الحرة يبعث الرعب فى قلوب المجرمين ، وقد استطاعت الجمعية بهذا الأسلوب إقامة حكم القانون ، وأخذت تقل الحاجة إلى وجودها حينما عاد للقانون احترامة وسلطانه ، ومع ذلك فإن الجمعية عقدت آخر جلساتها فى سنة ١٨١١ ولا يزال حفدة هؤلاء القضاة الأحرار يتلاقون كل عام فى أمكنة خاصة بألمانيا لإحياء ذكرى نفوذ أسلافهم الماضى ، وعظمتهم الداثرة .

ومن أشهر الجمعيات السرية التى ظهرت فى ألمانيا جمعية المستنيرين أو « الأليمناتى » وقد نشأت فى القرن الثامن عشر ، وكان من أعضائها شاعر ألمانيا الكبير وحكيمها العظيم « جيتى » وكان مؤسس هذه الجمعية شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ،

يسمى « آدم وإيسهاوبت » ، وكانت الجمعية فى أول نشأتها جمعية سرية للحكمة والتقدم ، ولكن سرعان ما تحولت إلى الناحية السياسية ، وكان هدفها أن تحل الرغبة فى عمل الخير لبنى الإنسان جميعاً محل الأديان ، والعمل على تقويض النظام الملكى. ولكن الملك كارل تيودور ملك باڤاريا الذى اتهمته الجمعية بالطغيان والاستبداد أصر على وجوده ، وأبى أن يتقلص ظل الملكية فى عهده ، فقضى على الجمعية فى سنة ١٧٨٣ وفرق شمل أعضائها .

وكانت قد تألفت جمعية سرية أخرى فى ألمانيا حينما نشأت جمعية المستنيرين وقد قامت هذه الجمعية بإعلان حرب من نوع آخر ، وهذه هى جمعية روزيكروشيان وكانت رجعية النزعة ، تحارب التقدم والاستنارة ، واستعمل أعضاؤها نفوذهم عند الملك لإزالة الإصلاحات التى شرع فى الأخذ بها نزولاً على رأى جماعة المستنيرين ، وكانت الطريقة التى اتبعتها الجمعية لنجاح هذه الخطة لا تشرفها ولا تشرف الملك ، فقد عملت الجمعية على ضم الملك إلى صفوفها ، وتمت حفلة التحاقه بالجمعية فى سنة ١٧٨١ ، وفى وسط جماعة من الرجال المقنعين حلف الملك يمين الولاء للجمعية ، وفجاءة ظهر على الحائط أمامه صور مشوهة تمثل أسلافه ، وخاطبته هذه الأشباح ونادته باسمه ،

فتغشاه الخوف والفزع ، ووعد بأن يجيب مطالب الجمعية ، ويعمل على تنفيذ أوامرها ، وكان رؤساء الجمعية بطبيعة الحال يعرفون سر استدعاء هذه الأشباح فى الأوقات التى يريدونها ، وذلك باستعمال المرايا والفوانيس السحرية والتكلم من باطن الجوف ، وبهذه الطريقة أصبح الملك ألعوبة فى يد الجمعية ، وكان أول مطالبهم من الملك هو محاكمة جمعية الأليمناتى وعدم الترفق بها وقد نجحوا فى ذلك ، ولكن أعضاء جمعية الأليمناتى فروا إلى إيطاليا وروسيا وغيرها من الدول الأوربية ، وأذاع هذا الاضطهاد أفكار جمعية الأليمناتى فى كل ناحية من نواحى أوروبا ، وحاول أعضاء جمعية الروزيكروشيان ممارسة السحر وتجارب الكيمياء ، وأن يحولوا الأحجار إلى ذهب ، وبالرغم من عيوب هذه الجمعية ونقائصها فإنها أثرت فى الشعر والأدب وأثارت الأخيلة وابتعثت بعض التفكيرات الفلسفية .

وظلت ألمانيا مستقراً للجمعيات السرية ، ففى سنة ١٧٦٢ نشأت جمعية « نادى موسل » وهى جمعية سياسية ، ومن هذه الجمعية تكونت جمعية أخرى هى جمعية الصداقة وكان أعضاؤها يحملون صليباً لاصقاً بشريط أصفر اللون ، ويحلفون يمين الولاء لبروسيا والعمل على أن تصبح زعيمة ألمانيا وهم أمام منضدة ، وقد وضع فوقها أربعة سيوف متقاطعة ، وظهرت جمعيات

سياسية سرية أخرى فى ألمانيا على هذا الطراز ، كان أكثر أعضائها من الطلبة ، وعمت هذه الجمعيات أكثر نواحى ألمانيا ، وقد وجد فى وقت واحد أكثر من ثلاثين جمعية سرية .

وفى سنة ١٨٠٧ كانت بروسيا تحت سيطرة الفرنسيين ، فتكاثرت الجمعيات السرية ، وكانت جميعها ترمى إلى الخلاص من الحكم الفرنسى ، وقد أوجد البارون ڤون ستاين فى سنة ١٨٠٩ « اتحاد الفضيلة » ولم يكن يسمح بالالتحاق بهذه الجمعية لغير ذوى السمعة الحسنة ، وقد انضم إليها كثير من النبلاء وأساتذة الجامعات ، وضباط الجيش والموظفين ، وأثارت الجمعية اشتباه نابليون فأمر بحلها فى يسر وسهولة ، ونشأت جمعيات سرية أخرى لمقاومة نابليون منها جمعية « اتحاد هوفمان » ، وقد حلت فى سنة ١٨١٥ ، ومنها جمعية « فرسان ملكة بروسيا » و « اتحاد الشبان » و « الجمعية الألمانية » و « الفرسان السود » . وفى سنة ١٨٣٢ ظهرت قوانين خاصة فى ألمانيا لكبح جماح جمعيات الطلبة والحد من نشاطها ، فقتل عدد من الجنود وزج فى السجن مدى الحياة بالكثير من أعضاء الجمعيات السرية الألمانية ، وهدأت حركة الجمعيات السرية فى ألمانيا حقبة طويلة ، ثم وقعت الحرب العالمية الأولى ، وخرجت منها ألمانيا تجرر أذيال الهزيمة بعد أن تحدت أقوى دول العالم ، واستشعر الألمان الذل والهوان فعادوا إلى

الاستعانة بالجمعيات السرية ، فنشأت ما بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٦ أكثر من مائة جمعية سرية ألمانية ، وكانت هذه الجمعيات مختلفة النزعات متباينة الأغراض ، فبعضها كان يرمى إلى استعادة النظام الملكى ، وبعضها كان اشتراكى النزعة ، وبعضها الآخر كان يميل إلى الشيوعية ، وبعضها كانت له نزعات دينية قومية ، وكثرت مؤامراتها ودسائسها ، حتى ظهور هتلر وتعاظم نفوذه واستعلاء أمره ، وكانت الحكومة الجمهورية الألمانية عاجزة عن إخماد حركات هذه الجمعيات السرية المتكاثرة المتنازعة ، وكان الحلفاء يرفضون السماح للحكومة الألمانية باستيقاء التسليح حتى تستطيع القضاء على هذه الجمعيات السرية التى تهدد كيانها وتسلبها سلطانها ، وكان كل ما تستطيعه الحكومات الألمانية فى ظل الجمهورية هو إعلانها أن هذه الجمعيات السرية غير شرعية .

وفى إبريل سنة ١٩٢٣ ظهرت محاولة فى باڤاريا لضم جميع المنظمات الحربية الألمانية فى اتحاد وطنى عام ، وكان جيش العاصفة الذى رأسه هتلر ممثلا أحسن تمثيل فى ذلك الاتحاد ، وقام هتلر بمحاولة لقلب نظام الحكم فى ميونخ أخفق فيها ، وأسفرت عن اعتقاله ، ولما أطلق سراحه عاد إلى تنفيذ برنامجه السياسى ، وما زال يدأب ويجهد حتى أصبح حزبه أقوى

الأحزاب الألمانية ، واستأثر بالسلطة وانفرد بالحكم ، واستطاع أن يقضى على الجمعيات السرية التى كانت تنافس جماعته ، ولكن هذا لم يمنع ظهور معارضين لخطته ونظامه ، وقد اضطر هؤلاء المعارضون إلى الاستتار والتخفى والعمل فى الظلام ، خوفاً من التنكيل بهم والقضاء عليهم ، وأوجد هتلر نظام الجستابو ومعسكرات الاعتقال ، ليقاوم هذه الحركات السرية ، ويخمد أنفاسها ، وكانت جمعية الحرية الألمانية السرية تقوم بحركة مقاومة خفية ، وتذيع النشرات والبيانات السرية ، فى المصانع والمتاجر والمنازل عن حقائق الأحوال . وقد بذل رجال الجستابو جهوداً عظيمة فى اقتفاء آثار القائمين بهذه الحركة الخفية ، ولكن القائمين بها ظلوا مع ذلك يواجهون الخطر ويعملون فى الظلام بغير كلال ولا ملل ، على إذاعة النشرات لنقض الدعوة النازية وتفنيد أقاويلها وكشف عيوبها ، وكانوا يفتنون فى ذلك افتناناً يدل على سعة الحيلة وقوة العقيدة ، وبرغم القسوة التى عامل بها النازيون أعضاء هذه الجمعية فإنها لم تكف عن عملها طوال العهد الهتلرى ، والظاهر أن هذه الجمعية كان لها أنصار مجهولون بين رجال الجستابو أنفسهم فقد حدث مرة أن أقيمت حفلة راقصة فى « جراتز » وأطفئت الأنوار لرقصة الفالس ، فلما عادت الأنوار كما كانت فى أول الحفلة ، كانت

أرض قاعة الرقص قد ملئت بمنشورات جماعة الحرية الألمانية ، ولم يستطع أحد أن يقتفى أثر موزع تلك المنشورات ، ونستخلص من ذلك أن الحركة النازية بدأت حركة سرية خفية ، ولما استولى النازيون على أزمة الحكم وقضوا على الأحزاب المنافسة لهم والجماعات المناوئة لحركتهم لجأت المعارضة إلى الأساليب السرية والطرائق الخفية ، وقد دبرت مؤامرات لاغتيال هتلر قبل الحرب الكبرى الثانية وفى خلالها ، ولم تنجح هذه التدبيرات . وقد كان اندحار ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية محققاً للهدف الذى كانت ترمى إليه المعارضة الألمانية الخفية السرية بعد إخفاقها المتواصل فى زعزعة النظام النازى . وتاريخ ألمانيا يرينا فى صورة واضحة العلاقة القوية بين العدوان على الحرية وظهور الجمعيات السرية .

الجمعيات السرية الإرلندية

أخشى ما تخشاه الجمعيات السرية هو وجود الدسيس بين أعضائها لأنه يهتك أسرارها ويعرض حياتها للخطر ، ولكى تتوقى الجمعيات السرية هذا الشر تأخذ على أعضائها العهود الوثيقة وتحملهم على أن يقسموا الأقسام المغلظة ، وتدقق فى اختيار الأعضاء ، وتجعل من حفلات التحاقهم بالجمعية وسيلة لسبرغورهم وكشف أحوالهم ووزن قيمتهم وتعرف شخصيتهم ، ولا تكتفى بذلك ، بل تلقنهم فى بادئ الأمر مبادئها العامة وتخفى عنهم أغراضها البعيدة وغاياتها المرومة ، وتجعلهم طبقات ودرجات ولا ترتفع بالعضو من طبقة إلى طبقة أسمى إلا إذا حاز الثقة وظفر بالتقدير . وهى تحذر العضو عند التحاقه بها من خيانة أسرارها أشد تحذير ، وكلما انتقل العضو من درجة إلى درجة أسمى توالى هذا التحذير وتأكيد العقوبة الشديدة التى تنتظر الخائن ، وتقيم العقبات فى سبيله ، والجمعيات السرية تحتفظ على الدوام للخونة من أعضائها بأشد العقوبات وأفظع ضروب التنكيل والتعذيب وحتى هؤلاء الأعضاء الذين يدركهم السأم أو يتسرب

إليهم الضعف ويرغبون فى الخروج من الجمعية والتماس العيشة الهادئة الهانئة لا يجدون الطريق سهلاً ، وتستريب بهم الجمعية ، وقد يكون نصيبهم من سخط الجمعية ونقمتها أشد وأقسى من نصيب الأعضاء الذين يخرجون على الجمعية ويتحدونها .

وقد ابتليت الجمعيات السرية الإرلندية بالخونة الذين كانوا يخرجون عليها ويحاربونها ويفشون أسرارها ، والإرلنديون قوم أذكياء حصفاء لهم مكر ودهاء وفيهم شذوذ وغرابة أطوار ، يستخفهم السرور ويستهويهم الحزن ، وتتوالى على نفوسهم نوبات السماحة والكرم ، وسوء الظن والحذر ، وهم يقرضون الشعر ويحبون الجهاد والصراع ، وشخصيتهم فى مجموعها معقدة ، ليس من السهل فهمها والوقوف على دوافعها ، ويعتقد بعض المفكرين الاجتماعيين أن لكل أمة خلقاً قومياً ثابتاً ، وربما كان فى هذا الاعتقاد جانب من الإسراف ، فالظروف والأحوال والملابسات التى تعرض للأمم تبدل من أخلاقها وتؤثر فى تصرفاتها وسلوكها . وربما كان من الإسراف كذلك أن ننكر وجود الخلق القومى إنكاراً باتاً ، فلكل أمة تقاليدها الخاصة ونزعاتها الأخلاقية المأثورة ، وموقفها تجاه الحياة ومشكلاتها ، ولكن الثبات على حالة واحدة والجمود والتحجر ليس من طبائع الأحياء . فللأمم سمات أخلاقية وألوان من الأمزجة لا تثبت الثبات كله ، ولا

تتغير كذلك التغيير كله ، وقد شاءت ظروف الأمة الإرلندية في القرون المتأخرة أن تطبع الإرلنديين بالطابع الذى أوضحت بعض سماته ، ولا يتسع المجال هنا لتحليل العوامل التى كونت لهم هذا المزاج ، لأنه بحث خارج عما أنا بصدده ، وإنما أردت بهذا الاستطراد أن أوضح أننى لست ممن يؤمنون بثبات الخلق القومى ، ولست كذلك ممن يذهبون إلى الاعتقاد بسرعة تغيره وتبدله .

والتناقض الواضح فى الخلق الإرلندى يجعل شخصية الإرلنديين شائقة تروق الباحث المتأمل فى أخلاق الأمم وأطوار الشعوب ، ولكنه فى الوقت نفسه يجعل تاريخ الجمعيات السرية الإرلندية يثير الدهشة ويبعث على الأسى .

وكان أول باعث للإرلنديين على الالتجاء للجمعيات السرية الفقر والبؤس وسوء الحال الذى كانت تعانيه إرلندة ، والمزارعون فى جنوبى هذا القطر يلقون على الدوام من دهرهم عنتاً ، ولكن الكرب اشتد بهم حتى رق صبرهم عن احتماله . ففى سنة ١٧٦١ اجتاحت إرلندا طائفة من الفلاحين كانت قد اعصوصبت وكونت جمعية سرية يربط بعض أعضائها ببعض رباط من العهود الموثقة ، وأخذت تعبث بالأمن وتنهب وتسرق وتقتل وتحرق وتهدم الحواجز والأسوار ، وتعرف هذه الجمعية

باسم جمعية « الفتية البيض » . وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يرتدون قميصاً أبيض فوق ملابسهم ليستتروا به ، وظلوا مثابرين على نشاطهم مدة خمس وعشرين سنة ، وكان أكثر هجومهم موجهاً للملاك الإنجليز الذين حلوا محل الملاك الإرلنديين ، وكان الدافع المباشر لقيام هذه الحركة هو الضائقة الزراعية التى نجمت عن تحويل المزارع الكبيرة إلى مراع ، وقد زاد ذلك أحوال المزارعين سوءاً ، ولقّاهم من دهرهم هماً ونصباً وضيقاً وحرجاً ، لقد كانت أكواخ المزارعين الإرلنديين بغير نوافذ ولا أبواب ، وكانوا يلجونها من ثقب مربع ، وكان هذا الثقب بمثابة الباب والنافذة والمدخنة ، وكان الظلام والدخان والخنازير والأطفال تملأ فراغ هذه الأكواخ القذرة البائسة ، وكان الناس يعيشون عيشة الضيق والحرمان والفقر المدقع . وكلما قل محصول البطاطة جاءت المجاعة فى أثر ذلك ، وكانت الحياة بوجه عام حياة بدائية خشنة نكراء .

ونشأت فى شمال إرلندة كذلك جمعية سرية من الشباب على نمط جمعية « الفتية البيض » ، وكان السبب المباشر لإنشاء هذه الجمعية أن المركيز دونجال أراد تكثير أمواله ، فطرد من مزارعه آلاف المستأجرين وأجر مزارعه لتجار « بلفاست » ، فكون المزارعون المطرودون جمعيتهم السرية وأسموها « القلوب

الفولاذية » وأعلنوا الحرب على الذين حلوا محلهم ، وكانت حرباً شعواء لا رحمة فيها ولا هوادة ، وكأنهم أرادوا بذلك أن يجعلوا أنفسهم جديرين بالاسم الذى أطلق على جمعيتهم ، فكانوا يحرقون الزرع والضرع ، ويقتلون وينهبون ، وظلوا شغل الحكومة الشاغل سنوات ، حتى استطاعت أن تخضد شوكتهم وتفرق شملهم ، وقد فر ألوف منهم إلى أمريكا .

وتبع ذلك صراع مر بين الجمعيات الكاثوليكية والبروتستانتية فقد رأى البروتستانت أن الحكومة قد عجزت عن حمايتهم من اعتداء جماعة « القلوب الفولاذية » والجمعيات الكاثوليكية الأخرى فصمموا على مقاومة الإرهابيين بسلاحهم نفسه ، فتكونت فى مقاطعة أرماج جمعية بروتستانتية أطلقت على نفسها اسم جمعية « فتية طلوع النهار » ، ولم يكن لهذه الجمعية حفلات ولا مراسم ؛ فقد كان غرضها محدداً معروفاً ، كانوا يجتمعون جماعات مسلحة عند تبلج الفجر ، ويسطون على بيوت الكاثوليك ويسلبونهم أسلحتهم ، وكانوا يكتبون على بيوت الكاثوليك عبارات طالبين منهم مغادرتها إلى كونّوت أو إلى الجحيم ، فى خلال عشرة أيام وينذرونهم بالعقوبة إذا لم يبادروا إلى ذلك ، وكانوا ينتقمون انتقاماً بالغاً من الذين يهملون أمر هذا الإنذار ، إلا إذا لجأ الكاثوليك إلى جماعة « المدافعين » — وهى جمعية كاثوليكية جديدة —

لدفع الأذى ورد الغارة ، وكانت نتيجة ذلك صدم الشر بالشر .
واستمرت هذه الحالة حتى أصبحت الحرب الداخلية عامة شاملة ،
وأمد الإنجليز البروتستانت ، وتبع ذلك عهد من عهود القسوة
الفظيعة والإثخان فى سفك الدماء . وكان فى الطرفين المتحاربين
خونة مأجورون يوافون الفريق الآخر بالأخبار ويكشفون له
الخطط ويوافونه بالخفايا والأسرار لقاء ما يدفع لهم من المال .

وكان الكاثوليك الإرلنديون ، وقد أخرجوا من أكواخهم
ولاذوا بالكهوف والأراضى البور العارية الجرداء ، تستحثهم
شجاعة اليأس على المضى فى تدبير المؤامرات وموالاة الهجوم
على أعدائهم ، وكانوا يباشرون التدريب على القتال فى الأماكن
المهجورة وبين الأجمات والمستنقعات ، ويخبئون الأسلحة فى
الغيران والأقبية السرية ، وكان يأتيهم المال والسلاح من الثائرين
الفرنسيين ، وانضمت جماعة المدافعين إلى جمعية اتحاد الإرلنديين
وفى سنة ١٧٩٨ اشتعلت الثورة ، وذهب زعيم اتحاد الإرلنديين .
اللورد إدوارد فتزجيرالد إلى فرنسا ، وعاد يحمل وعد فرنسا بالغزو
المسلح لمساعدة الإرلنديين ، وأبحر الجيش من فرنسا فى الوقت
المناسب ، ولكن الحملة لم تلق التوفيق ، فقد دفعت عاصفة السفن
البالغ عددها ثلاثا وأربعين سفينة تحمل خمسة عشر ألفاً من
الجنود الفرنسيين ، وأرغمت الريح السفن على الاتجاه إلى خليج

بانترى ، ولم يكن للثائرين سيطرة فى هذه الناحية تمكنهم من تيسير نزول رجال الحملة ، فعادت الحملة أدراجها إلى برست دون أن تفعل شيئاً ، ومات اللورد إدوارد متأثراً بجروحه قبل تنفيذ حكم إعدامه شنقاً ، وكان قد خانه وغدر به المدعو فرانسيس هيجنز صاحب جريدة « الرجل الحر » وتبع ذلك مذبحة عامة .

وأرجئت الثورات المنظمة حيناً من الزمن ، واستمرت حرب العصابات فكان رجال العصابات يطلقون نيران بنادقهم من خلف الحواجز والأسوار فتجيبهم طلقات نيران أخرى من داخل الأسوار والحواجز ، ولم تجد القسوة ولا الوحشية فى إخماد الحركة الإرلندية الثورية ، وظهرت جمعية الشريط ، ودخل فيها الإرلنديون أفواجاً ، وقوى نفوذها بسرعة لا تكاد تصدق ، وكان كل خمسين عضواً يكونون محفلاً ، وكان من رؤساء هذه المحافل رجل اسمه « باترك ديڤين » أحد مدرسى القرى وكان من الأعضاء الغلاة المتحمسين ، وقد تسبب فى وقوع مأساة أثارت شعور الناس ، وحملتهم على محاربة هذه الجمعية وتقليم أظافرها .

ففى ليلة من الليالى اشتعلت النيران فى المنزل الريفى المنعزل الذى كان يسمى « مثوى الإوز الوحشى » ، وارتفع الدخان وتعالى اللهب ، ورأى الناس من بعيد المارج المشتعل ، وسمعوا معمعة النيران ، فأقبلوا من بعيد وانبعثت أصوات الاستغاثة من

سكان المنزل الريفى المحترق ، وقد أحدقت به النيران من كل ناحية ووقف على مقربة منه رجال نزعت الرحمة من قلوبهم ، يحملون فى أيديهم حراباً يطعنون بها كل من حاول النجاة من النار المتضرمة المندلعة .

وكان يقيم فى هذا المنزل الريفى مزارع اسمه لينش ، وكان هذا الرجل وأسرته يزرعون الكتان ويبيعونه للمشتغلين بصناعة الكتان ، وكان هذا المزارع موفقاً فى عمله سعيداً فى حياته العائلية ميسور الحال مبسوط الرزق رحب الدار ، وقد انضم إلى جمعية الشريط ، ولم يطمئن إلى أخلاق رئيس محفل الناحية المدعو ديفين لأن هذا الرجل كان فظاً مطبوعاً على القسوة مولعاً بالشر والأذى شديد التعصب ، ووجد لنش إن ديفين يحمله على أعمال فظيعة لا يسيغها طبعه وتنفر منها نفسه ، ولم يستطع الرجل كتمان تذمره وأعلن أنه ينوى الاستقالة من الجمعية ، فلما نمى ذلك إل ديفين زار لينش ، ولما امتطى صهوة جواده ليعود أدراجه خلال المستنقعات ، انحنى على لينش وحدجه بنظرة خبيثة شيطانية قائلاً «هل عقدت العزم يالينش على الاستقالة ؟ » فأجابه لينش « نعم » . فرد عليه معلم المدرسة قائلا « إنى فى العادة لا أقدم النصائح ولكن إذا استقلت من الجمعية . . . » ولم يكمل جملته وغادر الدار .

ولما تلقى لينش هذا التهديد اعترف بكل شيء للقس ، ولكن القس لم يكن يستطيع أن يعمل شيئاً لمقاومة جمعية الشريط ، ولم يكن يستطيع كذلك أن يبدى رأياً أو يقدم نصيحة ، وتملك اليأس لينش فتقدم إلى رجال الحكومة وأبلغهم جلية الأمر ، فألقت الحكومة القبض على عضوين من أعضاء المحفل المحلى وحاكمتهما ، ونفذت الحكم فيهما ، وفر باقى الأعضاء ومن بينهم ديفين .

وعقد أعضاء الجمعية اجتماعاً سرياً فى منتصف الليل فى كنيسة صغيرة مهجورة ، وكان باترك ديفين مصمماً على الانتقام ، واستطاع أن يثير ثائرة الأعضاء ويسعر أحقادهم ، فقصدوا منزل لينش راجلين وراكبين ، وكان بعضهم قد تسلح بالحراب ليقوم بعمله الشيطانى ، وكانت دار لينش التى خيم عليها الهدوء والسكينة ملأى بالكتان المجفف ، وألقى ضغث قد تمشت فيه النيران ، وكان ذلك كافياً لهبوب النار متأججة متلظية ، فبات من وقودها لينش وزوجته وأولاده ومساعدوه فى أعماله وهلكوا جميعهم .

واستفظع بعض الجناة الجريمة التى بعثهم على ارتكابها الحرص على الانتقام ، واعترفوا بما جنت أيديهم ، وهرب ديفين واختبأ فى دبلن واشتغل عاملا فى الميناء ، وفى ذات يوم

ثار غضبه ، فصاح بأحد العمال قائلا « لقد أكلت النيران رجالا حتى أفنتهم ولم تبق منهم رمقاً ، لأنهم ضايقونى » وكان قوله هذا كافياً للفت النظر إليه وبحث أحواله ، ولم يمض على ذلك سوى بضعة أسابيع حتى كانت جثته مع جثث عشرة رجال آخرين من أتباعه معلقة فى القيود فوق أطلال دار الإوز الوحشى ، لتكون عبرة للمعتبر .

وقد انتهى أمر هذه الجمعية على وجه التقريب فى سنة ١٨٣٥ ، وقد خلفتها فى محاولة علاج مساوئ المجتمع الإرلندى وتفريج ضائقته جمعية « فتية سانت پترك » ولما ضعف شأن هذه الجمعية نهضت فى آثارها جماعة الفنيين ، وقد كانت جمعية الشريط وجمعية فتية سانت بترك من الجمعيات المقاومة للبروتستانت والمعادية للملاك ، ولكن جمعية الفنيين كانت جمعية قومية خالصة ولذا قصرت جهودها على مقاومة البريطانيين ، وكان من أسباب ضعف الجمعيات السابقة لهذه الجمعية أن الحكومة الإرلندية عملت على السير فى طريق الإصلاح ، وبخاصة فيما يتصل بتوزيع الأراضى الزراعية وامتلاكها ، وزالت بذلك الشكوى التى كانت سبباً فى وجود أكثر هذه الجمعيات .

وقد نشأت جمعية الفتيان فى الولايات المتحدة سنة ١٨٥٧ وكان غرضها الأصيل استقلال إرلندا ، ومؤسسا الجمعية هما

الإرلنديان المنفيان الكولونيل چون ماهونى وميشيل روهنى ، وكانت الجمعية سرية فى بادئ أمرها ، وظلت تعمل فى الخفاء حتى نوفمبر سنة ١٨٦٣ ، فقد رأت أن تبدى صفحتها وتبدأ فى تنفيذ خطتها فأعلنت الثورة ، وكانت الجمعية ترمى إلى أن تضم كندا وإرلندا فى جمهورية إرلندية منفصلة عن بريطانيا العظمى ، وكثر أنصار الجمعية وجمعت مالاً جماً وأسلحة كثيرة ، وبدأت تدرب الأعضاء سراً تدريباً حربياً ، وأخذت تستعين بالصحافة والنشرات على تأييد فكرتها وإذاعتها ، وقامت ثورتان فاشلتان فى إرلندا ، وأرسلت حملتان إلى كندا من الولايات المتحدة يسندهما أسطول مكون من قوارب صغيرة على مقربة من نياجرا ، ولكن الأخبار ترامت إلى الحكومة فى الوقت المناسب من الجواسيس والمخبرين ، وأخفقت الحملتان وشنق القادة .

ومن ١٨٧٢ أخذت الجمعية تنظم أمورها على أساس السرية وتراعى الاستخفاء والاستتار ، وبدأت التفكير فى استعمال الديناميت ، وكشفت مستودعات للديناميت فى كورك وبرمنجهام ومانشستر ولندن . وحاول رجلان من أعضاء الجمعية نسف جسر لندن ، ولكنهما لم يوفقا ولقيا حتفهما ، وحاول أعضاء الجمعية نسف بعض المبانى العامة ، ولكنهم لم يستطيعوا أحداث سوى القليل من الضرر ، وحاول عضو من أعضاء الجمعية

إلقاء قنبلة من الديناميت من شرفة الغرباء فى دار البرلمان البريطانى على منضدة رئيس الجلسة فألقى القبض عليه .

وفى السنة التى بدأت الجمعية تدبر مؤامرات النسف بالديناميت قتل فى حديقة فونكس بدبلن اللورد فردريك كافندش رئيس وزراء إرلندة ووكيله توماس بيرك، وانقلب أحد القتلة — چيمس كارى — شاهد ملك ومنح عفواً ، ولكنه أبعد عن البلاد ، ونفذ حكم الإعدام فى سائر القتلة ، غير أن چيمس كارى لم يعش بعدهم طويلاً ، فقد أطلق عليه الرصاص رجل يدعى أورونيل ، وبالرغم من عطف الرأى العام على هذا الرجل فإنه حكم عليه بالإعدام وأعدم .

وظل الأرلنديون يدبرون المؤامرات ويجاهدون ويناضلون لتوحيد إرلندا واستقلالها ، ونشأت جمعية « إخوان الجمهورية الإرلندية » ، وبدأت تعقد اجتماعاتها فى السر والخفاء ، وأخذت تدرب الشبان الإرلنديين على الحرب والمقاومة واتباع خطة جمعية الفتيان ، وكان من أعضائها « ديڤاليرا » وسرعان ما برز بينهم ، وجاءت الحرب العالمية الأولى فرأى فريق من جيش المتطوعين الذى كونته الجمعية أن يساعد إنجلترا ويحارب فى فرنسا ، وأن الإنجليز سيقدرون هذا الجميل ويساعدون إرلندا على نيل الاستقلال ، ورأى فريق آخر السير على السياسة

التقليدية التى تقول إن الشدائد التى تلم ببريطانيا هى الفرصة المتاحة للإرلنديين . وأطلق الفريق على نفسه اسم « المتطوعين القوميين » وأطلق الفريق الثانى على نفسه اسم « المتطوعين الإرلنديين » ، وكان من زعماء هذه الجمعية البارزين « أرثر جريفث » و « ميخائيل كولنز » و « دى ڤاليرا » وقد أقاموا حكومة ثورية جمهورية فى إرلندا ، وأصبحت جماعة « المتطوعين الإرلنديين » تسمى « جيش الجمهورية الإرلندية » . ولما حاول الإنجليز القضاء على هذه الحكومة تصدى جيش الجمهورية الإرلندية لمقاومتهم ، واستهدف المتطوعون للأخطار الشديدة ، وطال الصراع بين الفريقين حتى أدركهما السأم وأرسل لويد جورج إلى دى ڤاليرا يدعوه للمفاوضة ، وعقدت هدنة بين الفريقين وأمضيت المعاهدة فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وصافح ميخائيل كولنز لويد جورج . وفى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٢ قتل كولنز ، وكان سبب قتله أنه أمضى المعاهدة التى سمحت بأن تظل ألستر مرتبطة ببريطانيا ، وكان دى ڤاليرا من الزعماء الذين لم يرضهم ذلك ، وليس من همى فى هذا الكتاب تتبع الخلاف الذى نشب بين أعضاء هذه الجمعية وتعارض خططهم ، وواضح من هذا العرض السريع أن الجمعيات

السرية لعبت دوراً هاماً فى حياة الأمة الإرلندية وكان لها أقوى أثر فيما نالته إرلندة من استقلال ، وقد أظهر الإرلنديون فى جهادهم الكثير من ضروب الصبر والمثابرة والثبات .

النهلست أو العدميون

عقدت المحكمة القيصرية جلستها الأخيرة ، ولاحت على القاضى لوائح الإعياء ، فقد استمرت المحاكمة أياماً عدة ، ورن صوت النائب العام وظهر الملل والإجهاد على الجند المصطفة والمساجين الذين تجاوز عددهم الخمسين ، والمحامين ، والذين جاءوا لحضور الجلسة ومشاهدة المحاكمة .

وانحنى القاضى إلى الأمام فبان على الحاضرين فى القاعة جميعهم الاهتمام الشديد ، وقوى تطلعهم واستشرافهم ، وحدج القاضى بطرفه الفتاة الضاوية الهزيلة « صوفيا باردينا » وسألها « أترغبين أن تقولى شيئاً قبل أن تصدر المحكمة حكمها ؟ » فسكن اللغط وساد الهدوء ، وتقدمت الفتاة التى لا تتجاوز سنها الثالثة والعشرين فى هذا الصمت الشامل من بين حراسها من جنود القوزاق وقد شحب وجهها لأنها قضت فى السجن عامين قبل المحاكمة وأجابت فى بساطة « نعم »

وفى أناة وبطء وتردد بدأت تلقى فى ألفاظ متخيرة وعبارات دقيقة معبرة خطبة من أبلغ الخطب التى ألقيت فى قاعات المحاكم ، وكانت كلماتها موضع دهشة زملائها المساجين

وإعجابهم ، واستحسان الحاضرين جميعهم .

قالت وقد دوى صوتها فى أرجاء المحكمة المستمعة المصغية «إنى متأكدة وواثقة الثقة كلها أن بلادنا التى تغط الآن فى الرقاد ستستيقظ وستكون يقظتها رهيبة مخيفة ، وسوف لا تسمح بأن توطأ حقوقها بالأقدام ، ويدفن أبناؤها أحياء فى أنقاب سيبريا ، وسيرفع المجتمع النير المهين عن عنقه ، وينتقم لنا ، فاضطهدونا واقتلونا أيها القضاة والجلادون ، فإننا سنظل نقاومكم بالقوى الأدبية مادمتم تملكون القوى المادية . . . ومعنا أفكار الحرية والمساواة وليس فى وسع حرابكم اختراقها ! »

ولكن هذا الخطاب البليغ لم يكن مجدياً ، ولم تشفع لها بلاغتها ولا أنوثتها ولا شبابها الغض ولا جمالها ولا الإجازة الجامعية التى كانت تحملها ، ولم يكن هناك بد من تنفيذ العقوبة ، وكان ذنب صوفيا باردينا أنها وزعت رسائل تتضمن أفكاراً عن الحرية فى المصنع الذى كانت تعمل به .

ونطق القاضى بالحكم الصارم ، وكان يقضى عليها بالأشغال الشاقة مدة تسع سنوات فى سبيريا ، وقضى على الخمسين سجيناً الآخرين بأحكام تتردد بين خمس سنوات وعشر سنوات لمثل هذا الذنب الذى أدينت به صوفيا باردينا ، كان ذلك فى عام ١٨٧٧ .

وفى هذه السنة نفسها كانت محاكمة مائة وثلاثة وتسعين من من الروسيين ، وقد وجه اتهام فى بادئ الأمر إلى سبعمائة وسبعين من الناس ، وقضى معظمهم سنوات عدة فى السجن ، لأن التحريات استغرقت أربع سنوات ، وهلك منهم فى السجن خلال هذه المدة سبعون ، وحكم أخيراً على ستة وثلاثين بالنفى إلى سيبريا ، وكان بكل مقاطعة من مقاطعات روسيا مثل هذه المحاكمة ، وكانت شجاعة المسجونين الرائعة وتجلدهم وثباتهم يثير الإعجاب حتى فى نفوس هؤلاء الذين يمقتون مثلهم الأعلى ويستنكرون أساليبهم

وعملت الحكومة من ناحيتها على إخماد هذه الحركة وسحقها بأى ثمن ، وبكل وسيلة ، فكان أقل اشتباه يؤدى إلى الاعتقال والسجن ، وكان الحكم بالأشغال الشاقة مدة عشر سنوات عقوبة من ألقى خطبة فى اجتماع خاص لفئة قليلة من العمال . وكثر الجواسيس وانطلقوا فى كل مكان مرهفى الآذان يقلبون أجفانهم فى الناس ويتفرسون الوجوه لعلهم يظفرون بفريسة أو يقعون على صيد .

وكان العدميون فى بادئ الأمر أصحاب فكرة يدعون إليها ويبشرون بها ، ولم يكونوا مدبرى مؤامرات ولا شاهرى سلاح ، وإنما كانوا أعضاء فى جمعية أدبية فلسفية ، ظهرت وازدهرت

فيما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٧٠ ، وقد تأثر أعضاؤها بآراء هرزن وباكونين ، وقد تحمس للإصلاح الاجتماعى والسياسى أبناء الطبقات الميسورة وفتياتها ، وأعرضوا عن النعمة التى تقلبوا فى أعطافها والدعة التى نشأوا فى ظلالها ، ولم يحفلوا بمشاعر الآباء والأصدقاء ، وخالطوا المزارعين والعمال ، ونجحت دعوتهم فى الطبقات المتعلمة المستنيرة ، والغريب أنهم أخفقوا فى إثارة اهتمام المزارعين ، وأمعن دعاة الثورة فى إذاعة الدعوة والتبشير بالأفكار الثورية ، ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً يذكر ، وكانت تنقصهم التجربة وتعوزهم الحيطة ، ولذا أثاروا اشتباه الحكومة ، وسرعان ما امتلأت بهم السجون ، وغصت المعتقلات بطلبة الجامعات ، وقاومت الحكومة دعوتهم مقاومة عنيفة صارمة ، وأصبحت الكلمة فى الجمعية للمتطرفين الغلاة ، وأنشأت الجمعية فرعاً للإرهابيين ، وبدأوا عملهم باغتيال الجواسيس ، وتطرفوا وأمعنوا فى الإرهاب ، حتى قتلوا أكبر رأس فى روسيا وهو القيصر ، وكانت الأوامر التى تصدرها الجمعية إلى فروعها موجزة وفى الصميم ، فهى تبلغ العضو أنها ترسل إليه « كتباً ومسدسات » وتقول له « اقتل ، أطلق الرصاص ، اعمل على إثارة الشغب وإحداث القلاقل »

وكانت أول إشارة لبدء الإرهاب الذى ميز المرحلة الثانية

من مراحل حياة جماعة العدميين هى طلقة المسدس فى يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٧٨ ، فقد أمر الجنرال تريپوف رئيس شرطة بطرسبرج بجلد مسجون سياسى اسمه بوجولينيوف لأنه خالف أوامر السجن فى مسألة تافهة ، وكان هذا الجنرال مكروهاً فى كل مكان ومن الناس كلهم ، وتبلورت هذه الكراهة العامة الشائعة فى نفس الفتاة ڤيرازا سولتش فعقدت العزم على قتله ، وكانت ڤيرا قد سجنت وهى فى السابعة عشرة من عمرها مدة سنتين ، لأنها تسلمت رسائل لأحد العدميين ، وبعد انقضاء هذه المدة أخذت تنتقل فى روسيا من مدينة إلى مدينة ، فقد عرفت فظائع الحبس الانفرادى ، ولم يكن لها سابق معرفة بتريپوف لتضمر له الضغينة وقد زادها هذا إصراراً على المضى فى تنفيذ خطتها ، ففى صباح يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٧٨ وقفت له بالمرصاد ، وتظاهرت بتقديم ورقة إليه ؛ فلما شرع فى قراءتها أطلقت عليه رصاصة من مسدسها ، فسقط على الأرض وقد جرح جرحاً خطيراً ، وقابلت القبض عليها بهدوء واتزان ، وكانت محاكمتها شاهداً عجيباً على ما يضمره الناس من الكراهة والبغضاء لرئيس الشرطة الجريح ، فإن المحكمين رأوا تبرئتها رغم اعترافها بالجريمة ، وقد أدهش هذا الحكم الناس حتى المعتدية نفسها ، التى كانت على أتم استعداد للتضحية بحياتها ،

والأعجب من هذا أن هذا الحكم قوبل بالقبول فى كل مكان ، ورأى الناس فى تبرئتها حكماً على نظام الشرطة العام لا على الرئيس وحده ، وبطبيعة الحال ذهب رجال الشرطة غير هذا المذهب ورأوا رأياً يخالف هذا الرأى ، فلما أطلق سراح المتهمة بدأ الشرطة يطاردونها ، وأوقفوا العربة التى أقلتها فى الشارع المجاور ، ولكنهم نجحوا فى إثارة الشعب ، فإن النـــاس رفضوا أن يروا ڤيرا وقد أعيد القبض عليها ، وانتهزت هى فرصة التصادم بين الشعب والشرطة ولاذت بالفرار ، ورحلت فى أمان إلى سويسرة ، وهاج القيصر وماج ، وأمر بالبحث عن ڤيرا فى كل أنحاء المدينة ، ولكن البحث جاء متأخراً ، ورأى القيصر أن يزاور بشخصه الجنرال الجريح ويرقيه إلى منصب مستشار الدولة .

وقد أتاحت قسوة رجال الشرطة وحماقتهم الفرص الكثيرة لاشتداد غضب القيصر واهتياجه وثورته ، فقد ذكر اسم الجنرال مسنتسوف فى قضية خاصة بوصية مزورة وتحويلات مالية زائفة ، وكان موقفه فى القضية معيباً مريباً ، ولكن العجيب أنه أخذ بعد ذلك يعنى بالشرف والسمعه الحسنة وعمل على أن ينقذ سمعته بقتل جميـــع الذين أدوا شهادات ضارة بها ، وألقى فى غيابة السجن بكل من كانت وظيفته تبيح له حق

حبسه أو اعتقاله ، وكان يجيع المعتقلين حتى يموتوا ، ويثقل المرضى منهم بالقيود ليزداد مرضهم شدة ، وكان يقول عن أعماله الإجرامية إنها أوامر صادرة من القيصر .

وكان العدميون يعرفون جلية الأمور ، ولذا عقدوا اجتماعاً سرياً وأصدروا فى اجتماعهم حكماً بإعدامه ، ففى يوم ١٦ أغسطس بينما كان الجنرال خارجاً من حانوت أحد باعة الحلوى فى ميدان القديس ميخائيل ، أطلقت عليه رصاصتان من مسدسين ، فخر صريعاً على الأرض ، ووثب القاتلان إلى عربة كانت تنتظرهما ، وأطلق السائق العنان لخيله ، فسارت العربة بسرعة جنونية ، ومات الجنرال فى الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم ، وبحث رجال الشرطة عن القاتلين فى كل مكان بالمدينة ولكنهم لم يوفقوا فى الاهتداء إليهما .

وضاعفت الحكومة جهودها ، وألغت طريقة المحكمين فى الجرائم السياسية ، وتفرق شمل شعبة العدميين فى بطرسبرج ، وألقى القبض على ستين من أعضائها ، ولكن أربعة أو خمسة من الأعضاء ظلوا مع ذلك يباشرون سراً طبع جريدة « الأرض والحرية » التى كانت تصدرها الجمعية ، وكان لإصدار النشرات والرسائل أثر كبير فى الإبقاء على الحركة ومدها بأسباب القوة والنماء ، ولذا كان يعمل العدميون على موالاة

إصدار النشرات والرسائل بالرغم من الرقابة الشديدة والمطاردة العنيفة ، وكانوا يستهدفون فى هذا السبيل لأخطار جمة ويحتملون تضحيات كثيرة .

وقد تمكن يهودى بارع اسمه هارون زوندلفك من تهريب مطبعة إلى بطرسبرج فى سنة ١٨٧٧ ، وظلت هذه المطبعة توالى عملها مدة أربع سنوات ملأى بالأخطار ، وكانت المنشورات والإعلانات والبيانات كأنها تبرز من جوف الأرض ، وتصل إلى العامل فى مصنعه والجنود فى ثكناتها والموظفين فى دواوينهم ، بل كان القيصر نفسه يجدها ملقاة فى أركان قصره ، وفوق مكتبه ، ولم تكف جريدة « الأرض والحرية » عن الظهور بعد القبض على الكثير من أعضاء الجمعية ، وتبدد شمل باقى الأعضاء ، ولم يكن رئيس تحرير الجريدة ولا الأعضاء الذين يشتركون فى تحريرها يعرفون المكان الذى تطبع فيه وكان حلقة الاتصال بين إدارة التحرير وبين القائم بالطبع . شاب أرستقراطى النشأة ابن أحد قواد الجيش ، وكان يشغل منصباً حكومياً عالياً ، وكان يحمل الأصول فى محفظة أوراقه ، وكان القائمون على الطبع أربعة من أعضاء الجمعية وقد قضوا أربعة أعوام وهم مهددون فى كل لحظة بكشف أمرهم والقبض عليهم ، وكانوا

قد احتاطوا للطوارئ ورتبوا أمورهم بحيث يتمكنون من إخفاء كل شيء فى خلال دقائق معدودة ، وأتاحت الخيانة بعد أربع سنوات الفرصة لرجال الشرطة .

وازدادت رقابة الشرطة شدة وكثرت الاعتقالات ، وأمعن العدميون فى اتباع الأساليب السرية ، ولجأوا إلى طرق كثيرة لحماية أنفسهم ، فكانوا لا يختارون أمكنة لعقد اجتماعاتهم إلا بعد البحث الشاق والاحتياط التام ، ويراعون أن تكون النوافذ فى مكان الاجتماع موضوعة بحيث يسهل إعطاء الإشارة منها ، وأن تكون الحيطان سميكة والأبواب قوية متينة ، وكان الأعضاء يختارون على الدوام حجرات واقعة بين طابقين ، فإذا فجأهم الشرطة سيطروا على السلالم حتى يتمكن الأعضاء فى داخل الحجرة من إبادة الوثائق الموجبة للشبهات ، ولم تكن هذه الاحتياطات من قبيل اللهو أو العبث ، فقد استطاع خمسة من أعضاء الجمعية أن يهزموا اثنى عشر رجلا من رجال الشرطة هاجموا بغتة إدارة جريدة « إرادة الشعب » فى مدينة موسكو .

وكان من أعضاء الجمعية رجل اسمه إسكندر ميشيلوف وقد أطلقوا عليه لقب « الحارس » لإصراره الدائم على اتخاذ الحيطة واصطناع التقية ، ونقده الشديد للأعضاء الذين كانوا

يقصرون فى هذه الناحية ، وكان يتعمد أن يقتفى أثر الأعضاء فى الطريق ليرى هل يحتاطون لأنفسهم ويحاذرون أولا ، وكان يتجسس أخبار جواسيس الحكومة حتى أصبح خبيراً بهم عليماً بأحوالهم لا تخفى عليه حركاتهم ولا تغيب عنه أساليبهم وحيلهم ، وكانت معرفته الصميمة بالطرق والأماكن الصالحة للاختباء تنقذ أعضاء الجمعية من أيدى الشرطة ، وتهيئ لهم وسائل الإفلات والهرب ، وكان لا ينى يغير مكان إقامته ويطالب الأعضاء على الدوام بأن يحذوا حذوه . وقد خدم الجمعية خدمة جليلة بإيجاده نظام « المخبئين » ، وكان هؤلاء المخبئون من الأعضاء الذين تمنعهم مناصبهم الحكومية أو مراكزهم الاجتماعية من المشاركة العملية فى أعمال الجمعية ولكنهم كانوا مستعدين لأن يتخذوا من مكانتهم وتباعدهم عن مواطن الشبهات وسيلة لتهيئة مخابئ لأعضاء الجمعية العاملين وحمايتهم وتيسير سبل الفرار لهم ، وكان من هؤلاء سيدة من أصل دانماركى فى السبعين من عمرها تدعى مدام هورن ، وكان زوجها موظفاً فى إدارة الشرطة ، وقد نقمت على السفير الدانماركى لأنه رفض أن يزكى زوجها ليرقى لوظيفة أسمى من وظيفته ، وعطفت على أعضاء هذه الجمعية المناهضة للنظام القائم ، وأثبتت أنها صديقة للجمعية وفية نافعة ، وكانت

تخبئ الأعضاء فى منزلها وتوافيهم بالأخبار التى تسمعها من زوجها المرح الثرثار ، وتحتفظ بالكتب المحرمة الممنوعة ، وقد استطاعت بفضل مكانتها وسنها وحزمها وحضور بديهتها أن تنفى عنها الشكوك وتبعد الشبهة .

وكانت اجتماعات الجمعية فى أغلب الأوقات تسفر عن إصدار الحكم بقتل أحد كبار رجال الشرطة ، انتقاماً منهم للمعاملة القاسية التى يعاملون بها أعضاء الجمعية المعتقلين ، ففى ٩ فبراير سنة ١٨٧٩ أطلق الرصاص على الأمير الكسيس كرابوتين حاكم خراكوف ، وهو خارج من حفلة راقصة ، وكان قد عامل بعض المعتقلين بقسوة بالغة ، حتى آثروا الانتحار على احتمال إسرافه فى التنكيل بهم وتعذيبهم ، واستطاع جولدنبرج — القاتل الذى انتقم لهم — الإفلات والهرب ، ولم يمض على هذا الحادث شهر حتى قتل مرزكى العدمى رئيس الشرطة السريين ، واستطاع هو كذلك الفرار ، وكان الجنرال درنتلن القتيل تقع عليه تبعة شنق المساجين الذين حاولوا الهرب من السجن لسوء المعاملة ، فوضعت الجمعية اسمه فى قائمتها السوداء وتولى جولدنبرج المذكور تنفيذ الحكم .

وكان أعضاء الجمعية فى بادئ الأمر يتهمون كبار الموظفين بالجشع والسرقة والرشوة والقسوة المنكرة ، ويكتفون

بطلب عزلهم أو محاكمتهم ، ولا ينوون شراً للقيصر ، ولكن الأمور سارت إلى نهايتها المنطقية ، واختمرت فكرة الاعتداء على القيصر نفسه ، لأنه رأس هذه الحكومة الفاسدة ، وحامى حمى هذا النظام الظالم ، فوضع أعضاء الجمعية لغماً فى نيكولايف الواقعة على البحر الأسود لنسف القيصر ، ولكن الشرطة كشفت الأمر ، وتطوع لقتل القيصر جولدنبرج قاتل الأمير الكسيس كرابوتين ، ونافسه فى التطوع طالب متهوس اسمه سولوڤيف ، واشتد الخلاف بينهما من أجل ذلك ، واحتدمت المناقشة ، وقال الطالب فى أثناء المناقشة الحامية وقد تملكته الحماسة : « إن مسألة القيصر من الأمور التى تخصنى وليس لى مندوحة عن القيام بها ، ولن أتخلى عنها لرجل آخر » واضطر جولدنبرج إلى التنازل عن قتل القيصر لهذا الشاب المتحمس المتعصب ، وفى اليوم الثانى من إبريل سنة ١٨٧٩ أطلق أربع رصاصات على القيصر وهو يتمشى فى ساحة القصر ، وقبض عليه قبل أن يقترب من القيصر ليتمكن من إصابته وشنق يوم ٩ يونيو وظل إلى النهاية محتفظاً بثباته ورباطة جأشه ولما تقدم إلى المشنقة صاح معلناً أن الجمعية ستنتقم له .

وشرعت الحكومة بعد ذلك فى اتخاذ احتياطات شديدة ،

وقسمت الإمبراطورية إلى ست مناطق ، وجعلت لكل منطقة حاكماً عاماً له سلطة ديكتاتورية ، وراقبت الشرطة المنازل جميعها ، وقدموا تقارير عن حالة كل غريب طارئ ، أو كل من يشتبهون فيه ، وكان كل من تحوم حوله شبهة أو يقصر فى تقديم البيانات الوافية عن سلوكه وأعماله يزج به فى غيابات السجون ، ولم تمض أشهر حتى غصت السجون بالمساجين ، ولكن هذه الإجراءات الشديدة لم تنل من رجال الجمعية ولم تثن عزمهم ، فعقدوا مؤتمراً سرياً استمر من ١٧ يونيو إلى ٢١ منه ووضعوا خططاً خطيرة لنسف القطار الإمبراطورى أثناء رحلته من القرم إلى بطرسبرج ، ولكى تنجح خططهم وضعوا ألغاماً فى ثلاث جهات مختلفة ، ولكنهم مع ذلك أخفقوا ، وقد وضعوا أحد الألغام على مقربة من أودسا ، وفى اللحظة الأخيرة سار القطار القيصرى من طريق آخر ، ووضع لغم آخر عند الكسندروفسك ونجا منه الإمبراطور دون أن يدرى ، لأن المادة القابلة للانفجار لم تنفجر ، وكان اللغم الثالث قد وضع فى مسكو ، وقد انفجر هذا اللغم ، ولكنه أصاب القطار الذى كان يحمل حقائب القيصر ، وكان قد تقدم القطار الذى كان يقل القيصر فى الجزء الأخير من الرحلة ، وعجزت الحكومة عن الاهتداء إلى الأشخاص الذين قاموا بوضع الألغام ،

ولم يفرح المتآمرون لنجاتهم بقدر ما حنقوا لأن مجهوداتهم ذهبت هباءً منثوراً ، ولكن بالرغم من عدم اهتداء الحكومة إلى الذين تولوا وضع الألغام ، فإنها مع ذلك قبضت على بعض أعضاء الجمعية ، وكان ممن ألقت الحكومة القبض عليهم قبل رحلة القيصر جولدنبرج قاتل الأمير الكسيس ، وأراد هذا الرجل أن ينجو برأسه ، فاتهم مئات من زملائه أعضاء الجمعية ، وبادرت الحكومة إلى إلقائهم فى السجن ، ولكنه لم ينجح لا فى وقف محاولة الاعتداء على القيصر ، ولا فى إنقاذ حياته ، ولما وجد أن خيانته غير مجدية انتحر .

وكأنما كان القيصر يحمل تعويذاً يقيه الأخطار ويدفع عنه السوء ، فبعد أشهر قلائل قام العدميون بمحاولة أخرى لقتله ، وقد سبق هذه المحاولة إرسال إنذار للقيصر مضمونه أن الجمعية ستذيقه الموت إذا لم يمنح البلاد بعض الحقوق الدستورية ، وكان ذلك فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٠ ، ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى قامت الجمعية بمحاولة جديدة لاغتيال القيصر ، وكانت محاولة فى غاية الخطورة فقد أراد بها العدميون قتل القيصر فى مأمنه ، وذلك بنسف قاعة الطعام فى القصر القيصرى المعروف باسم « قصر الشتاء » .

وكان يعيش فى ظل هذا القصر ويرتع فى بحبوحته أكثر

من خمسة آلاف من الناس ، أكثرهم لا يعرف له عمل معين ، وكثير منهم أصدقاء لخدم القصر وحشمه ، وبين هذا الجمع الحاشد من الخدم والأتباع والفضوليين كان رجل من العمال اسمه شالترين ، وكان هذا الرجل نجاراً بارعاً فى عمل الأثاث والزخرفة ، وعثر رجل الشرطة على رسم للقصر القيصرى مع أحد المسجونين ، فاستوجب ذلك إجراء تفتيش عام فى كل ناحية من نواحى القصر ، وكان من الأقسام التى فحصت بعناية القسم الخاص بنجارى القصر ، ولم يكشف البحث والتنقيب شيئاً يدعو إلى الريبة والحذر ، أو الاشتباه وسوء الظن ، ولكن بالرغم من هذا البحث الدقيق فإن النجار البارع الذى منح مكافأة خاصة فوق مرتبه لبراعته فى عمله كان يشكو صداعاً شديداً فى رأسه مدة أسابيع ، وكان سبب هذا الصداع رائحة النتروجلسرين المتصاعدة من الديناميت الموضوع فى داخل الوسادة التى كان ينام عليها ، ولم يخطر ببال الجندى الموكل بحراسة هذا القسم من أقسام القصر أى خاطر من خواطر الشك فى هذا النجار القدير ، بل حاول أن يصهر إليه ويزوجه ابنته ، وكان الفساد العام فى القصر القيصرى قد وصل إلى حد أن شالترن النجار الأمين كان يجد نفسه مضطراً إلى أن يسرق من الطعام وبعض الأشياء الزهيدة ليدفع عن نفسه الشبهة

ويظفر بالثقة ، وقد وفق فى ذلك ، ففى اليوم الخامس من شهر فبراير كان قد وضع فى مكان تحت قاعة الطعام القيصرية خمسين كيلوجراماً من الديناميت ، وكانت قد أعدت موائد لمائة من كبار رجال الدولة والسفراء الأجانب ، بمناسبة إقامة حفلة غداء تكريماً لأمير بلغاريا ، ووجد شالترن متسعاً من الوقت لمبارحة القصر قبل حدوث الانفجار

وقد انفجر الديناميت وأحدث دوياً مزعجاً ، ونسفت قاعة كبيرة من قاعات الطعام يبلغ طولها عشرة أقدام وعرضها ستة أقدام ، واهتز القصر جميعه اهتزازاً عنيفاً وتداعت أركانه ورواسيه ، وقتل خمسة من الحراس وجرح خمسون ، ولكن حادثاً عرضياً كان قد أخّر القيصر وضيوفه عن الاجتماع فى حجرة الطعام ، وبينما كان الطهاة فى المطبخ غاضبين لهذا التأخير ، وقع هذا الانفجار المروع ، وأخفقت حفلة الغداء إخفاقاً تاماً ، ولكن الضيوف وعلى رأسهم القيصر نجوا بأعجوبة !

وعاش شالترن سنتين بعد هذه الحادثة ، ولم يعرف الدور الذى لعبه فيها إلا حينما سيق إلى المشنقة فى يوم ٢٢ مارس سنة ١٨٨٢ لارتكابه جناية أخرى ، فقد افتخر قبل أن يتقدم إلى المشنقة بأنه هو الذى تولى نسف قصر الشتاء .

وأصدرت الجمعية بعد نسف القصر بياناً أبدت فيه أسفها لمصرع الحراس ، ولكنها أعلنت فى الوقت نفسه أنها ستظل متبعة خطتها حتى يوافق القيصر على إنشاء مجلس حر للنواب ، وكانت الإشاعات قد تناثرت عن الدستور القادم ، وكان القيصر الإسكندر الثانى نفسه ميالا إلى الإصلاح ، ولكنه لم يلق تشجيعاً من مستشاريه ، وقد أدخلوا فى روعه أن الإصلاح لا يؤدى إلا إلى مضاعفة الإجرام ، والإمعان فى إتيان الفظائع والمنكرات . وكان رد القيصر المباشر على هذه المحاولة هو تعيين الكونت لوريس ميليكوف ديكتاتوراً ، واشتد فى اضطهاد كل من عرف بميله إلى الأفكار الحرة ، وقبل قدوم الربيع فى سنة ١٨٨٠ أرسل من سجون موسكو إلى مناجم الملح فى سيبريا أكثر من ثلاثة آلاف سجين ، وبلغ عدد الذين أرسلوا إلى سيبريا فى سنة واحدة اثنى عشر ألفاً .

ولكن النقمة التى حلت بالجمعية واشتداد غضب القيصر عليها ، وإمعان الحكومة فى الاعتقال والنفى إلى سيبريا زادت العدميين عناداً وإصراراً وثباتاً وإقداماً ، وتقدم سبعة وأربعون من الأعضاء متطوعين لقتل القيصر ، واستطاعت الجمعية فى هذه المحاولة الأخيرة تحقيق غايتها ، فقد قتل القيصر يوم ١٣ مارس سنة ١٨٨١ .

كان القيصر عائداً فى عربته من عرض عسكرى قرب بطرسبرج ، فلوحت الفتاتان جسى ولقمان وصوفيا پيروسكايا بمنديليهما ، وكان هذا التلويح هو الإشارة المتفق عليها بين المتآمرين من أعضاء الجمعية ، فألقى رايساكوف قنبلة ، وانفجرت القنبلة خلف العربة التى كان يستقلها القيصر ، وجرحت عدداً من الجنود ، فترجل القيصر ، وفى تلك اللحظة مضى إليه قُدُماً إجناتيوس جونفزكى وألقى قنبلته فى عناية وإحكام ، وتبع ذلك انفجار مروع مزق القيصر والذى ألقى القنبلة ، ولقى جونفزكى حتفه قبل القبض عليه ، أما القيصر فإنه لم يعش بعد ذلك سوى ساعة ونصف ساعة .

ويروى أن القيصر أبصر بعد انفجار القنبلة الأولى صبياً بائساً ارتمى على الأرض ، وقد أخذ منه الألم ، فأوقف العربة ووثب منها بين الجمهور ليرى ما أصاب الصبى ، ويقدم ما يستطيع من المعاونة ، ولم يلحظ القاتل الآخر الذى انتزع القنبلة من صدره وكان على وشك إلقائها .

وكان جونفزكى ابن مزارع صغير رقيق الحال ، رزق أحد عشر من الولد ، وجاهد جهاداً شاقاً ليعولهم وينشئهم ، وأثرت فى أعصابه المعركة الطويلة التى نشبت بينه وبين الفقر المدقع ففقد عقله ، وكان جونفزكى طالباً نجيباً سباقاً لأقرانه ،

وقد أرسل إلى بطرسبرج لإتمام تعليمه ، وانضم فى أول أمره إلى اتحاد الطلبة وعرف بين زملائه بالاعتـــدال والرزانة ، ولكن ما رآه من اضطهاد الحكومة للعدميين وذكريات نشأته المرة القاسية وضيقه بالأحوال السائدة فى روسيا جعله ينضم إلى صفوف الإرهابيين ، وقد قتل المتآمرون الآخرون وإحدى الفتاتين شنقاً ، ولقوا جميعهم الموت بشجاعة وثبات .

ولم ترهب هذه العقوبة الإرهابيين ، فبعد مصرع القيصر بعشرة أيام ألقى فى شوارع موسكو مئات من بيض عيد الفصح ، وكان الذين يفتحون هذا البيض يجدون فيه خطاباً مفتوحاً موجهاً إلى القيصر إسكندر الثالث الذى خلف القيصر إسكندر الثانى ، ومضمون هذا الخطاب أنه إذا أباح حرية النشر ، أو حرية الكلام ، وحرية الانتخاب ، ووافق على وجود الجمعية العمومية ومنح المسجونين السياسيين عفواً عاماً ، فإن العدميين يعدون من ناحيتهم بمساعدة الجمعية العمومية التى تنعقد بغير قيد ولا شرط .

وكان رد القيصر إسكندر الثالث على هذه الطلبات المعقولة هو الإمعان فى الشدة وكم الأفواه ، وإخماد الأنفاس ، وأبى له عناده إلا الاستمساك بحقوقه الأوتقراطية جميعها ، وقد أرجئت حفلة تتويج القيصر من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٨٢ ،

ولم تتم إلا فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٣ ، وبولغ فى الاحتياط لحماية القيصر من اعتداء الإرهابيين ، فتجمعت قوى الحكومة كلها فى موسكو لهذه المناسبة ، ونشط الجواسيس ، وتجاهل العدميون هذه المناسبة تجاهلاً تاماً ، واغتنموا فرصة إقامة الحفلة فى موسكو ليثيروا الشغب فى بطرسبرج وغيرها من المدن الروسية الكبيرة ، وتوالت حوادث الاعتداء فى السنوات التالية وأطلقت مارى كالزشنيا الرصاص على الكابتن كاتانسكى أحد كبار رجال الشرطة ولكنها أخطأته ، وهى ابنة أحد التجار ، وكانت سنها لا تتجاوز التاسعة عشرة ، وحكم عليها بالأشغال الشاقة مدة عشرين سنة ، وكان أخوها قد حكم عليه قبل ذلك بالأشغال الشاقة مدى الحياة ، فأرادت أن تنتقم له ، ولكنها دفعت ثمن الانتقام غالياً .

وتلقى وزير الداخلية رسائل تهديد ، وخشى الرجل على حياته ، فكان يكلف الدولة نفقات كثيرة ، لاتخاذ الاحتياطات الواقية ، وكان القيصر ورجاله بطبيعة الحال لا يجدون مشقة فى ملء السجون والمعتقلات والمنافى بالذين تحوم حولهم الشبه ، وتتعلق بهم الظنون ، ولكن القيصر ورجاله فى الوقت نفسه كانوا يعيشون كالأسرى فى بيوتهم ، يصدق فيهم قول حافظ إبراهيم فى وصف حياة السلطان عبد الحميد :

كان لا يعرف القرار بليل   لا ولا يستلذ طعم الهجود
حذراً يرهب الظلام ويخشى   خطرة الريح أو بكاء الوليد

وقام الإرهابيون بمحاولات مخفقة لقتل القيصر إسكندر الثالث ، وأرغم هذا الحكومة على التمادى فى الشدة ، والاعتداء على الحريات ، وكثرت المحاكمات ، وتوالى إصدار الأحكام الشديدة . وقد أساء ذلك إلى سمعة الحكومة الروسية ، وأظهرها فى عيون الدول الأوربية بمظهر الحكومة الطاغية المستبدة التى تستذل الشعب وتستعبده ، وتسلبه حقوقه وتسومه الهوان ، وخجلت الحكومة الروسية من كثرة هذه المحاكمات العلنية المزرية بسمعتها ، فلجأت إلى طريقة التخلص من الأشخاص الذين تعدهم مشاغبين ، باتخاذ الإجراءات الإدارية ، وتحت ستار هذه الإجراءات الإدارية كانت الحكومة تأخذ الناس من بيوتهم وتنتزعهم من وسط أسرتهم ، وترسل بهم إلى سيبريا بغير محاكمة ويظل مصيرهم موضع التساؤل ومناط الدهشة ، وقد نفى الكثيرون إلى سيبريا ، وقضوا نحبهم هناك ، وكان بعض الذين تحل بهم النقمة يلتمسون أن يسمح لهم بأخذ ما يكفى من الطعام خلال الرحلة الشاقة الطويلة ، وما يقيهم غائلة البرد من الملابس ، فيتهمون بمخالفة الأوامر والخروج على طاعة الدولة ومقاومة السلطة ، وبعضهم كان يطلق عليه

الرصاص ، وفى أثناء الرحلة كان الحراس يعاملون المتهمين أسوأ معاملة ، ويعتدون عليهم بالضرب والركل ، وكانت حالة السجون التى تنتظر هؤلاء البائسين المتعوسين سيئة كل السوء ، وكان الكثيرون منهم يقضون نحبهم بسبب سوء الحالة الصحيـــة وانتشار الأمراض ، وقد أرسلت مدام « تشبريكوڤا » رسالة مطولة للقيصر وصفت فيها أعمال أتباعه ، ووصلت إليه كذلك معلومات عن هذه الأحوال السيئة من مراجع أخرى ، وكل ذلك يجعله حقيقاً باللوم ومتهماً بالتقصير فى حق رعيته وإهدار كرامتها والإساءة إليها ، وكانت مدام تشبريكوڤا من سيدات الطبقة العليا ، وقد نفاها القيصر إلى القوقاز لأنها قررت الحقيقة ووصفت الواقع ، ولم يكن لها أية علاقة بجمعية النهلست .

وقد اضطر كثير من العدميين إلى الهجرة من روسيا ، تاركين أملاكهم ، مؤثرين حياة النفى والتشريد فى البلاد الأجنبية على حياة الذل والاضطهاد فى وطنهم وكانت الحكومة القيصرية ترسل جواسيسها وراءهم وتعنى باستطلاع أخبارهم وبخاصة فى البلاد التى يكثر بها تجمعهم ، وقد وجد الجنرال سلڤرسكوف — أحد هؤلاء الذين آثروا الهجرة من بلادهم — ميتاً فى أحد فنادق باريس ، وفى مايو سنة ١٨٩٠ ألقى القبض

فى باريس على أربعة عشر عضواً من أعضاء جمعية النهلست ، وكان أكثرهم يرتزقون من إعطاء دروس فى الموسيقى أو اللغة الروسية ، أو إلقاء محاضرات فى العلوم أو الكتابة فى الصحف ، وكان بعضهم يتخفى ويتستر ليتحاشى الجواسيس ، ويجنب البلاد التى أظلته بحمايتها المتاعب والمشكلات ، أما الأعضاء الذين كانوا يعملون فى الخارج من أجل قضية الجمعية فكانت حياتهم مستهدفة على الدوام للخطر ، وبخاصة من الجواسيس الذين كانوا يندسون فى داخل صفوفهم .

وكان جماعة من هؤلاء يتلاقون فى أحد منازل باريس ، وكان بعضهم قد اشترك فى مقتل رئيس وزراء روسيا سنة ١٩١١ ، وقد أطلق موردكا بوجروف عليه الرصاص فى مسرح كيف ، وفى حضور مئات من الناس ، ومن بينهم بعض أعضاء الأسرة المالكة ، وكان هؤلاء الأعضاء جميعهم من الرجال المجربين الموثوق بهم ، وقد عقدوا اجتماعاً خاصاً لم يتخلف عن حضوره سوى رجل واحد ، فاشتبهوا فى أمره ورجحوا أنه جاسوس من هيئة الأوكرانا — وهم جماعة الشرطة السرية الروسيين — وتحقق ظنهم وعرفوا أن الرجل خان عهدهم ، فصمموا على الانتقام منه ، ولكنه أسرع فى العودة إلى روسيا .

ولما حدثت الثورة الروسية ، أصبح العدميون يعدون من

الرجعيين ، وطاردتهم الحكومة مطاردة عنيفة ، وقد نجح نظام « الاوجپى » حيث فشل نظام الأوركانا . وقد عاد كثيرون من النهلست إلى روسيا لما استولى كرنسكى على أزمة الأمور ، وتقلد بعضهم المناصب العالية ، وكان من هؤلاء بوريس ساڤنكوف ، فقد أصبح حاكم بتروغراد ، ولما جاء عهد سيطرة لينين رجع المنفيون السابقون إلى باريس ، ونظموا حركة الروس البيض لمقاومة الشيوعيين .

وقد اجترأ ساڤنكوف على العودة إلى روسيا سنة ١٩٢٤ ، وألقى القبض عليه ، وسجن فانتحر فى السجن ، وتولى بعده كوتجف تنظيم حركة مقاومة النهلست والروس البيض للثورة الروسية ، ولكنه اختفى بعد سنة ولم يهتد له على أثر ، وشغل مكانه الجنرال ميلّر ، فاختفى هو كذلك فى ظروف غامضة لم يكشف عنها النقاب ، وحامت الشبهة حول الجنرال سكوبلين أحد الذين كانوا يجتمعون به ، واختفى بعد ذلك الجنرال سكوبلين نفسه ، ويرجح أن رجال الأوجپى استعانوا بالجنرال سكوبلين على إخفاء كوتجف والتخلص منه ، ولم تهدأ حركة النضال بين الروس البيض والبلاشفة ، ولست أدرى هل ألقى النهلست سلاحهم أو أنهم ما زالوا مصرين على المقاومة ، وقد ذكرت بعض أخبار الحرب الرهيبة التى أعلنوها على الحكومة

القيصرية ، وفيها أظهروا شجاعة خارقة ، ومثالية سامية وتضحية بالنفس والنفيس ، وقوة احتمال قليلة النظير ، وكثير من أعمالهم كان يبعثهم على إتيانها الظلم الصارخ والقسوة البالغة ، وسخافة الحاكمين ، وحماقتهم وإسفافهم وإهدارهم كرامة الناس والعبث بمصائرهم ، وقد قتلوا القيصر الإسكندر الثانى وكان من أحسن قياصرة بيت رومانوف وأطيبهم نفساً وأكثرهم تحرياً لوجوه الإصلاح ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يمثل نظاماً بغيضاً إلى نفوس النهلست ، ولذا لم يلينوا معه ولم يترفقوا به ، واغتالوا الكثيرين من كبار الحاكمين وأعيان الدولة البارزين ، وقد عجزوا عن تغيير نظام الحكم ، ولم يستطيعوا بالإرهاب والتخويف تبديل القوانين ، بل لعلهم زادوا القياصرة إمعاناً فى الشدة والطغيان ، ولكن تعاليمهم ومثاليتهم وجرأتهم وإخلاصهم لمذهبهم مهدت السبيل لوقوع الثورة الروسية ، وقد نستنكر أعمالهم ، ونستفظع أساليبهم ، ونشك فى جدوى الجرائم التى ارتكبوها ، ولكن علينا قبل أن نقضى لهم أو نحكم عليهم أن نذكر الحكم السيئ الظالم القاسى الفاسد الذى استطار صوابهم بما فيه من ضروب القسوة وألوان الفساد ، حتى أتلف أعصابهم ، وأحال عقولهم ، وابتلى نفوسهم بالشذوذ والالتواء ، وجعلهم يعتقدون أن الهدم والتخريب والتدمير من الأعمال المقدسة والحسنات الجديرة

بالتخليد ، وأنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمم ، وانتشالها من حضيض الذل والهوان ، والسمو بها إلى مستوى القوة والرفعة ، وربما كانت أظلم الأوقات فى تاريخ الأمم هى الأوقات التى يؤمن فيها الناس بأن الشر هو الطريق الوحيد للوصول إلى الخير ، وهذا هو أساس فلسفة النهلست التى غلبت عليهم واستبدت بتفكيرهم وملأت نفوسهم .

جمعية اليد السوداء

كان اسم هذه الجمعية فى الأصل « جمعية الاتحاد أو الموت » ، وكان غرضها أن تكون هناك وحدة تجمع بين سلافى الشمال وسلافى الجنوب ، وكان مقر الجمعية فى بلغراد ، وكان أعضاؤها يجتمعون فى إدارة جريدة « بيمونت » التى كانت تدافع عن النزعة السلافية .

وكانت المادة التى احتاج إليها دراجوتين ديمتريفتش الذى عرف باسم العجل إبيس لإنشاء مثل هذه الجمعية موجودة على أطراف أصابعه ، فقد كان يؤم حانة جرين جار لاند « إكليل الزهر الأخضر » ، الواقعة فى أحد ميادين بلغراد ، المنفيون السياسيون والطلبة المبعدون من وراء الحدود ، وشذاذ أهل البلقان ويتجاذبون الأحاديث ويتبادلون الأفكار ويضعون الخطط ، وأمثال هؤلاء الناس ممن صفرت أكفهم من المال وامتلأت رءوسهم بالأحلام والأوهام وشعروا بأن المجتمع قد نبذهم ونفاهم ولم يصبح لهم فيه مكان ملحوظ ولا رأى مسموع كان يسهل على رجل مثل دراجوتين أن يؤثر فيهم ويوجههم الوجهة التى يريدها .

وفى هذا المكان نفسه كان يجتمع طلبة الجبل الأسود الذين كانوا يتلقون العلم فى جامعات بلغراد ، وقد دبروا فيه مؤامرة سنة ١٩٠٧ لقتل الملك نيقولا ملك الجبل الأسود ، وقد أخفقت المؤامرة ، ولكن هذا لم يمنع غيرهم من رواد حانة « إكليل الزهر الأخضر » من بث الأفكار الثورية فى نفوس الشبان ، وكان رواد هذه الحانة ممن يعجبون بالقتل السياسى ويحرضون عليه ، ولذلك أثروا فى طلبة الجبل الأسود ، وجعلوهم يأتمرون بملكهم ، بالرغم من أن الملك لم يسئ إلى أحد منهم ، وكان أكثرهم يتلقى العلم على نفقة الحكومة التى حاولوا قلب نظامها واغتيال رئيسها .

واشتد ساعد جمعية اليد السوداء ودخل الصربيون فيها أفواجاً ، وقد سارت الجمعية على نمط جمعية[1] الأوملادينا فكان كل عضو يسجل أسماء خمسة أعضاء آخرين ليكون منهم « يداً » ، وكانت الطاعة العمياء شرطاً أساسياً ، وكان كل عضو يقطع على نفسه عهداً بأن ينسى فرديته ، وكانت مراسم حفلة دخول الجمعية بشعة تبث الرعب ، كان العضو الجديد

---

(١) جمعية الأوملادينا من أشهر الجمعيات السرية التى ظهرت فى البلقان ولعبت دوراً سياسياً هاماً وهى المسؤولة عن قتل الأمير ميخائيل الصربى والملك الإسكندر والملكة دراجا ولم يتسع المجال لسرد تاريخها فى هذا الكتاب .

يتبع ضامنه إلى حجرة مظلمة ، ويظهر بعد ذلك عضو من مركز الجمعية الرئيسى ويتولى الإشراف على الحفلة ، وكان هذا العضو يرتدى عباءة فضفاضة ، ويضع على رأسه قبعة سوداء ذات رفارف ، وأمامه منضدة قد ألقى فوقها قماش أسود ووضع فوق هذا القماش شمعة وصليب قد رسمت عليه صورة المسيح وهو مصلوب ، ومسدس وخنجر ، ويحلف العضو الجديد بالصليب بأنه حينما يؤمر باستعمال الخنجر أو المسدس لا يتردد ولا يسأل ، ويقسم بعد ذلك بالشمس التى تدفئه ، والأرض التى تغذوه ، وبالله ، وبدماء أجداده ، وبشرفه وحياته .

وكانت الجمعية تلقى فى روع الأعضاء أن الوطنية فوق كل اعتبار ، وأنها قد تستدعى ارتكاب الكبائر وإتيان المنكرات ، وأنها تبيح الغدر بأخلص الأصدقاء وإفشاء أسرارهم إذا اقتضى الأمر ، ويتلقى بعد ذلك العضو رقمه فى الجمعية ، ويصبح بذلك خاضعاً لرئيس الشعبة ، ويلقنونه أن الجمعية لا تتردد فى قتل الخائن الذى يعصى أمرها ، وكان إبيس هو المشرف العام على شعب الجمعية جميعها ، وهو الذى يوجهها ويصدر لها الأوامر والتعليمات ، وهو الذى اختار الطلبة الثلاثة الذين عهد إليهم فى قتل الأرشيدوق فرانتز فرديناند وريث

العرش النمساوى ، وكانوا من البوسنة ، وخلال السنوات الثلاث التى سبقت مصرع الأرشيدوق النمساوى فى ذلك اليوم المشؤوم من شهر يونيو سنة ١٩١٤ ارتكبت الجمعية جرائم قتل كثيرة ، وقد أرسلت فتى مسلولا اسمه چوڤانوڤتش إلى ڤينا لقتل الإمبراطور چوزيف فى سنة ١٩١١ ، ولم يسمع عن هذا الشاب شىء بعد ذلك ، وحاولت الجمعية فى فبراير سنة ١٩١٤ قتل الملك فرديناند ملك بلغاريا ، ومعظم حوادث القتل التى قامت بها الجمعية ارتكبت فى الأراضى النمساوية .

وكان ساعد إبيس الأيمن فى خلال تلك الفترة رجل من أعضاء جمعية اليد السوداء اسمه توكوستش ، وكان هذا الرجل موئلاً للمتناقضات ، كان صغير الجرم هزيل الجسم ، ولكنه كان فى الوقت نفسه جامح الطبيعة مخلوع العنان ، وكان وطنياً صادق الوطنية من الشرفاء النزهاء ، ولكنه كان شديد التعلق بمعتقداته ، قوى الإيمان بصحتها ، إلى حد أنه كان يستحل كل منكر فى سبيلها ، وكان فرط تحمسه لمعتقداته يدعو إلى الشك فى سلامة عقله ، ولما سمع إبيس أن بعض طلبة البوسنة تطوعوا لقتل الأرشيدوق اختار من بينهم ثلاثة تقل سنهم عن العشرين ، وكانوا مصابين بالسل ، ولا يرجى لهم أن يعيشوا طويلاً ، وكان كل واحد منهم حريصاً على أن يأتى بالفلق

ويتحرق شوقاً إلى ذلك ، وقد دفع إبيس بهؤلاء الشبان الثلاثة إلى توكوستش وقال له « علمهم استعمال الأسلحة ودربهم عليها » .

وكان هؤلاء الشبان الثلاثة الذين وقع عليهم الاختيار هم جافريلو پرنزيب ونديلكو تشابرينوفتش وجرابيز ، وكان برنزيب شاباً عاطفى النزعة سقيم الجسم والعقل ، وكان تلميذاً بإحدى مدارس سيراجيفو ، وقد حرضه أستاذه دانيلو إلتش على الثورة والتمرد ، وساعده أخيراً فى محاولة الاعتداء على الأرشيدوق وكان تشابرينوفتش ابن أحد الجواسيس النمساويين ، وقد مات أبوه فى فقر مدقع ، وأثر ذلك فى نشأته ، وكانت أحاديثه دائماً تنم على الرغبة فى الثورة والتمرد ، وهو الذى أوحى إلى برنزيب فكرة قتل الأرشيدوق ، وكان ثالثهم ابن أحد قساوسة البوسنة ، ولكنه كان يعتقد أن الدين حديث خرافة .

ولما أتم توكوستش تعليم الشبان الثلاثة بدأوا رحلتهم ، ووضع لهم أحد أعضاء الجمعية خطة الانتقال من بلغراد إلى المكان الذى وقعت فيه الجريمة ، وقد ركبوا باخرة سارت بهم فى نهر الساف حتى شاباتس ، وكانوا يحملون رسالة إلى رئيس نقطة الحدود هنالك ، وعمل الرجل بما فى الرسالة فأخذهم إلى مكان إدارته وزودهم بجوازات مرور حرة ، وتذاكر سفر خاصة ،

ولا شك أن السهولة التي تم بها ذلك كله كانت تبين أن وراء المؤامرة رجالاً أجل شأناً وأسمى منصباً من إبيس ، وقد دلت المحاكمات وقرائن الأحوال على أن الوزارة الصربية لم تكن بريئة من الاشتراك في تدبير هذه المؤامرة .

وكان الشبان الثلاثة يجهلون ذلك كله ، وكانوا ينتقلون وهم يحملون حمولة القنابل في شكل طرود من يد أحد العملاء السريين إلى يد العامل السرى الآخر ، وقد ناموا في تلك الليلة بدار أحد الجمارك الصربية ، وسيقوا في الصباح من هذه الدار إلى كوخ أحد المزارعين بإحدى جزائر نهر درينا ، وكان دليلهم أحد المشتغلين بتهريب البضائع ، وقد قادهم خلال الحدود في الغابات والمستنقعات ، وقد أنهكهم السير ، وهم في حالتهم الصحية السيئة ، حتى اضطروا إلى قضاء الليل في كوخ مهجور ، وذهبوا في اليوم التالي إلى منزل أحد العاطفين عليهم ، وقد أرشدهم هذا الرجل إلى أطراف « بريبوى » وتركهم في منزل رجل يدعى تشوبيلوڤتش ، وهذا الرجل في دوره تقدم بهم وحمل لهم حمولتهم الخطرة فوق سرج جواده ، وقد كلفته هذه المساعدة حياته فيما بعد ، وبعد مخاطرات جمة وألوان شتى من الاحتيال على التخلص من مراقبة الشرطة وعيون الجواسيس تسللوا إلى ملاذهم الأخير ، وكان صاحب الدار عضواً في

جمعية الدفاع القومى التى تفرعت منها جمعية اليد السوداء ، ولكنه كان من الأعضاء المسالمين الذين لا يرون العنف ، وكانت مخاوفه لها ما يسوغها ، وقد دفع هو الآخر حياته ثمناً لإيوائه إياهم ، وقد رفض رفضاً باتاً أن يحمل لهم القنابل إلى سيراجيفو ، ولذا سبقهم برنزيب إلى سيراجيفو وقد عاونه أستاذه دانيلو إلتش على إحضار حمل القنابل من منزل مشكو يوڤانوڤتش الخائف المرعوب ، وخبأها تحت أريكته ، وقد عنى دانيلو إلتش بمعاونة الشبان الثلاثة عناية عظيمة ، ولم يأل جهداً فى بذل كل ما يستطيع من المساعدة ، وهو الذى اختار لهم المكان الذى يقفون فيه ، وهو الذى أحضر لهم سيانيد البوتاسيوم ، ليتناولوه مباشرة بعد إلقاء القنابل ، وكانوا جميعهم مستعدين للقاء الموت الوحى .

وفى يوم الأحد الموافق ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ وقف الثلاثة فى الأماكن التى اختارها لهم دانيلو إلتش ، وكان يوماً مشمساً قائظاً ، وبعد أن عرض الأرشيدوق وزوجته دوقة هوهنبرج الجيوش ، استقلا العربة إلى قاعة الحفلات بالمدينة ، بين هتاف الشعب وتهليله ، ولما اقتربت العربة من المكان الذى كان يقف فيه شابرينوڤتش ، ألقى قنبلة سقطت فوق رفرف العربة ، ولم يلحظ أحد ما حدث سوى الأرشيدوق ، وقد انحنى إلى الوراء وتناول

الربطة السوداء وألقى بها من العربة ، وقد حدث انفجار شديد ملأ العربة التالية لعربته ثقوباً ، ولكن لم يجرح سوى أحد رؤساء أركان الحرب .

وسارت العربة بالأرشيدوق حتى قاعة الحفلات ، وهناك ألقى عمدة المدينة كلمة ترحيب بالأرشيدوق ، وصبر الأرشيدوق على سماعها ، وقد تناهبت نفسه المشاعر المختلفة ، وكان شجاعاً وفيه ميل إلى الفكاهة ، وقد ألح حاكم المدينة ورئيس شرطتها على ضرورة عودة الأرشيدوق من طريق آخر ، ولكن الأرشيدوق أصر على تنفيذ البرنامج بغير أدنى تغيير ، وكان طريق العودة يضيق عند زاوية فرانسيس جوزيف ، وقد وقف برنزيب فى هذه الناحية ، فلما أبصر العربة قادمة خطا إلى الأمام وأطلق من مسدسه ثلاث رصاصات ، وكانت هذه الرصاصات هى التى بدأت الحرب الكبرى الأولى .

وقضت هذه الرصاصات على حياة الأرشيدوق وزوجته دوقة هوهنبرج ، وابتلع الشبان الثلاثة السم القاتل ليتجنبوا المحاكمة ، وما قد يرغمون عليه من الاعترافات ، ولكن الجرعات كانت خفيفة لا تكفى للقتل فأمرضتهم ولكنها لم تقض عليهم ، ولما كانت أسنانهم لا تبلغ العشرين لم يحكم عليهم بالإعدام ، وقد ماتوا جميعاً بالسل فى سجن ثرسنشتارت قبل مرور ثلاثة

أعوام على حبسهم ، ونفذ حكم الإعدام فى دانيلو إلتش وكذلك أعدم الرجلان الآخران اللذان مهدا لهما سبيل الذهاب إلى سيراجيفو .

ولكن إبيس والرجال الآخرين المستترين خلفه ظلوا بمنجاة من العقوبة ، وكان دورهم الإجرامى فى تاريخ العالم لم ينته بعد ، وقد نجوا من الإعدام لأن حكومة النمسا كانت تجهل مدى اشتراكهم فى جريمة سيراجيفو .

وأظهر إبيس كفاية وإقداماً فى الحرب الكبرى ، فأغدقت عليه آيات التكريم والتشريف ورقى إلى درجات أعلى ، وفى سنة ١٩١٦ لما كان الحلفاء يحاربون فى الخنادق على مقربة من سالونيك إلى جانب الصرب واليونان كان إبيس رئيس هيئة أركان حرب الجيش الصربى الثالث ، وكان لا يزال وفياً لمبادئه الإرهابية ، وقد أشعلت فى نفسه نيران الثورة هزيمة الجيش الصربى ، وقد اتهم إبيس الملك إسكندر بسوء التصرف فى أحوال الصرب ، وبطبيعة الحال لم يكن إبيس يرى علاجاً لذلك سوى شىء واحد ، وهذا الشىء هو قتل الملك وإزالته من الطريق .

ولكن الملك كان هو البادئ بالهجوم فى هذه المرة ، ففى سنة ١٩١٧ كانت مقترحات الصلح تلوح فى الأفق

الدولى ، وتلمع خلال غبار الحرب ، وخشى الملك ورئيس وزرائه ما يحدث إذا أتيحت للنمسا فرصة الاهتداء إلى حقيقة جريمة سيراجيفو ، وإبيس يعرف الكثير من أسرار هذه الجريمة ، ولذا صمم الملك على التخلص منه ، وبحث أعوان الملك عن قاتل فى وكر القتلة الرهيب المسمى « باقة الزهر الأخضر » ، ودفع ثمانمائة جنيه ، ولكن لم يحدث شىء ، وكان رئيس وزراء الصرب باشتش يشعر بجريمته ، ولذا قام بمحاولة أخرى فى مقدونيا فأخفقت هذه المحاولة كذلك ، وأصبح لابد من محاولة جديدة .

ففى سنة ١٩١٦ بينما كان الملك الإسكندر يسوق سيارته فى بلاد اليونان خلف جبهة سالونيك ارتطمت سيارته فى كمين وأطلقت عليه رصاصتان ، وألقى القبض على المدعو « مالويابى » أحد الهاربين من الجيش النمساوى ، وكان لهذا الرجل علاقة يشوبها الغموض بحادثة سيراجيفو ، وقد خضع حيناً من الزمن لتوجيهات إبيس ، ولم يكن هناك دليل واضح على أن إبيس له مشاركة فى هذه المحاولة لقتل الملك ، ولكن المحققين اكتفوا بوجود العلاقة القديمة بين مالويابى وإبيس ، وقدموا إبيس للمحاكمة فى سالونيك سنة ١٩١٧ ، والحرب لا تزال دائرة الأرحاء ، واعتقل رئيس هيئة أركان الحرب إبيس ومعه ستة

آخرون ، ووجهت إليهم تهمة التآمر على حياة رئيس وزراء الصرب باشتش ، وتهمة الاتصال بالعدو والحرب قائمة على قدم وساق ، وكانت محاكمتهم محاكمة صورية تثير الضحك وتسخر من العدالة ، وكان الحكم عليهم قد أعد قبل السير فى التحقيق بزمن طويل ، وتدخلت إدارة الحرب البريطانية تطلب الرأفة بالمتهمين ، وحكم على الجميع بالإعدام ، ونفذ حكم الإعدام فى ستة منهم .

وأعلن إبيس فى وصيته الأخيرة قوله « إننى أموت بريئاً من التهمة التى وجهت إلى ، ومقتنعاً أن موتى كان ضرورة لأسباب متصلة بسياسة الدولة العليا » وقد كان الرجل على حق فى هذا القول ، فقد حوكم من أجل جريمة ، وحكم عليه بالإعدام من أجل جريمة أخرى !

ولكن موته لم يقطع سلسلة الجرائم ، ولم يطل بهامته طلب السُّقْيا ، فقد ظلت الجرائم ترتكب باسمه بعد موته ، وأقسم كثير من أعضاء جمعية اليد السوداء على ضرورة الانتقام لقتله ، ونسجت خيوط المؤامرات لاغتيال الملك الإسكندر ، وأصبحت الدولة الجديدة ــ دولة يوجوسلافيا ــ على وجه التقريب ضعف حجم الصرب القديمة ، وفى السنوات التى تلت الحرب الكبرى كان للملك الإسكندر ودولته الجديدة خصمان لدودان ، وهما

إيطاليا والمجر ، فاتجهت إليهما أنظار جمعية اليد السوداء فى طلب المال والحماية ، وكان أعضاؤها المنفيون يجدون فى المجر الترحيب وطيب الإقامة .

وأخذ الإرهابيون فى التدريب وإعداد العدة ، وأنشئت فى إحدى مزارع المجر مدرسة لهذا النوع من التدريب ، وهى مدرسة « يانكاپوستا » المشهورة ، وزودت هذه المدرسة بأحدث الأسلحة وأشدها فتكاً ، وكان يدرس فيها فن الاعتداء فى الشوارع والطرقات ، وطريقة الاختباء وراء الجمهور البرىء والاحتماء بصفوفه ، وأعد فى هذه المدرسة هدف فى حجم الملك الإسكندر لتدريب الإرهابيين على إصابته بطلقات الرصاص ، وكان المشرف على المدرسة والمتولى أمرها رجل ضخم اللغاديد اسمه الدكتور أنتى پاڤلتش ، وكان يدعى « بالرئيس » ، وكان خلفاً مناسباً لسلفه إبيس ، وقام الإرهابيون بمحاولات كثيرة للاعتداء على حياة الإسكندر فى داخل يوجوسلافيا وفى خارجها ، ولكنها لم توفق ، وقد دعاه مرة بوريس ملك بلغاريا لزيارته زيارة رسمية توكيداً لصلات المودة بين الأمتين المحاربتين وكان الملك الإسكندر يلبس فى هذه الزيارة صداراً مدرعاً لوقايته من الرصاص ، وكان الملك بوريس يتحرى فى خلال هذه الزيارة الوقوف على الدوام أمام ضيفه فقد كان يؤثر

أن يموت على أن يقتل زائره فى أثناء رحلته فى بلغاريا .

وكان الخطر الذى يتهدد حياة الملك الإسكندر شديداً ويحتاج دفعه إلى الرقابة التى لا تغفل والحيطة الوافية ، وكان قتله فى أرض أجنبية يلائم الكثير من الخطط التى وضعت لاغتياله ، ويرضى أهواء الكثيرين ، وأعد فى يانكاپوستا ستة رجال لاغتنام مثل هذه الفرصة ، ودربهم الدكتور پاڤلتش أحسن تدريب للقيام بهذه المهمة ؛ وكانت زيارة الملك الإسكندر لفرنسا فرصة لا مثيل لها هيأها القدر للجمعية .

وسافر إلى فرنسا ستة الرجال عن طريق سويسرة ، حاملين جوازات سفر مزورة ، ولما اقترب الرجال الستة من مرسيليا عرفهم زعيمهم كرامر بالمطلوب منهم ، وكان هو وحده الذى يعلم التفصيلات عن المحاولة المزمعة ، وعرف الأعضاء الخمسة الدور الذى سيقومون به ، وكانوا يعرفون أنهم إذا أخفقوا فإن الجمعية لا تعفيهم من القتل ، ولا تقيل عثرتهم ، وأنهم إذا قاموا بمحاولتهم فإن الشرطة أو الجمهور سيفتكون بهم ، وتردد واحد منهم ووجد فى نفسه الشجاعة لتحدى مخاوف اليد السوداء فتسلل من بينهم واحتمى بالشرطة بعد ذلك.

وكان الدكتور باڤلتش فى مرسيليا ليشرف على الخطط النهائية ، وقام الخمسة الباقون بتنفيذها ، وتمكن أحدهم — وهو

كالرمان – من الوثوب إلى داخل العربة الملكية وهى سائرة ، وأطلق الرصاص على الملك الإسكندر والمسيو برتو وزير خارجية فرنسا وأرداهما ، وضربه حارسهما الذى كان يمتطى الجواد بسيفه بعد فوات الأوان .

وألقى القبض على ثلاثة من المتآمرين ، وهرب كرامر والدكتور پاڤليتش إلى إيطاليا ، ورفض موسولينى تسليمهما ، وخرجت يوجوسلافيا من محور السياسة الفرنسية ، وانتقلت إلى محور السياسة الإيطالية ، ونجحت المؤامرة وانتقمت الجمعية لرئيسها إبيس .

وعادت مدرسة يانكاپوستا مزرعة كما كانت فى بادئ الأمر ، ولكن جمعية اليد السوداء ظلت حية ، ولا أدرى مصيرها فى الوقت الحاضر ، ومهما يكن من أمرها فإنها يكفيها فى إحصاء مساوئها أن جريمة سيراجيفو التى دبرتها كانت السبب المباشر لاندلاع نيران الحرب العالمية الأولى .

جمعية الكوكلاكس كلان

في سنة ١٨٦٥ كانت حالة الولايات المتحدة الجنوبية سيئة ، فقد استمرت الحرب الداخلية أربع سنوات ، قتل فيها خيرة رجالها وفقد الباقون مالهم من مال وعتاد ، ولم يكن الأمن مستتباً ولا النظام مستقراً ، وفي مثل هذه الحالة تظهر ضروب مختلفة من الجمعيات السرية ، وظهر أثر الفكاهة الأمريكية في الأسماء التي كانت تتسمى بها أمثال هذه الجمعيات فمنها جمعية « اتحاد المظلات » وجمعية « الذين لا يدرون شيئاً » ، وكان أعضاء هذه الجمعيات مع ادعائهم أن لجمعياتهم أسراراً غامضة لا تباح معرفتها إلا للقلائل ، يمرون زرافات في الشوارع حاملين الأعلام والطبول ومرتدين ملابس عجيبة الشكل غريبة اللون ، وكانت طبقة السود في الولايات الجنوبية محرومة من حق الانتخاب ، ولكن بعد انتصار أهل الولايات الشمالية على سكان الولايات الجنوبية أرغمهم الشماليون على تعميم حق الانتخاب ، وعزز ذلك مكانة السود ورفع من شأنهم ، بعد أن ذاقوا الاضطهاد وتجشموا الأهوال ، وكانت حالهم مثل حال معظم

المحدثين فى الظفر بالحرية لا بد أن تمر بهم فترة يجدون فيها شيئاً من الصعوبة فى التمييز بين الحرية والفوضى . والذى ظل بعيداً عن الضوءحيناً من الزمن غير غريب أن يبهره الضوء ويسدر بصره . وكذلك الذين حرموا من الحرية زمناً لا يستغرب أن يبهر ألبابهم نور الحرية ، ويطيش بأحلامهم ويفقدهم توازنهم ، وكان من أثر ذلك أن أصبح موقف البيض فى الولايات الجنوبية أسوأ من موقف السود قبل نشوب الحرب الداخلية .

وفى هذا الجو العاصف والموقف الحرج ظهرت جمعية الكوكلاكس كلان ، ففى شهر مايو سنة ١٨٦٦ اجتمع فريق من الشبان فى إحدى المصالح لتزجية الوقت ودفع الملل . واقترح أحدهم إنشاء ناد يضم شتاتهم ويرد عنهم عوادى الضيق والسأم ، وتحمس الباقون للفكرة وراقهم الاقتراح ، وبدأوا يتشاورون فى اختيار الاسم ، وقال أحدهم : « ما رأيكم فى كوكلوس اليونانية ومعناها الدائرة ؟ » فأعجب المجتمعون بالاسم لغرابته ، وحرفوه إلى كوكلاكس ثم أضافوا إليه كلمة « كلان » إمعاناً فى الإغراب ، ومجاراة لروح العصر القلقة النافرة .

وأثر هذا الاسم الغريب فى اتجاهات الجمعية ، فقد حرصت أن تلائم بين أغراضها الغامضة وبين اسمها العجيب ، وكان عنصر التسلية وحب الفكاهة غالباً على الجمعية فى بادئ

الأمر ، ولكن الاسم العجيب يستدعى إحاطته ببعض غوامض الأسرار ، وتمشياً مع اسم الجمعية الغريب أخذ الأعضاء يطلقون على أنفسهم ألقاباً عجيبة منها «الساحر العظم» «العملاق الكبير ذو العين الواحدة» (السيكلوب) «رقعة الشطرنج الكبيرة» والهدرا والاحتدام والبومة وما إلى ذلك من غريب الأسماء ، وكان يطيب لكل عضو أن يتنكر ويتخفى .

وعقد أول اجتماع للجمعية فى جنح الليل ، وقد أخاف السود وأرعبهم ، وكان يطوف بالمكان الذى تقام به الحفلات لاستقبال الأعضاء الجدد فريق من الأعضاء متنكرين فى ثياب بيض لمنع الغرباء والولوعين بحب الاستطلاع من الاقتراب وإخافتهم ، واشتد الإقبال على الجمعية ، وكانت فى بادئ أمرها تتحرى فى اختيار الأعضاء أن يكونوا من ذوى السيرة الحسنة والسمعة الطيبة ، فإذا أصر أحد الناس غير المرغوب فيهم على الالتحاق بالجمعية والوقوف على أسرارها أعطوه درساً لا ينسى . وقد قبل مرة أحد هؤلاء بالجمعية فى الظاهر ، وقادوه إلى مكان موحش ، وهو معصوب العينين وأمر بالانتظار حتى يتلقى أوامر الرئيس ، وظل ساعات ينتظر صدور هذه الأوامر حتى أمله الانتظار ، ولم يعد يستطيع صبراً وعاد أدراجه خاسئاً مستخزياً ، ووضع رجل آخر من

هؤلاء فى برميل وألقى بالبرميل من تل منحدر ، وقنع الرجل بعودته حياً .

واكتشف أعضاء الجمعية أن الملابس العجيبة التى يرتدونها للتنكر تثير الرعب فى قلوب السود النزاعين بطبيعتهم إلى الاعتقاد بالخرافات ، وكان الكثيرون من أعضاء الجمعية من جنود الاتحاد الذين خاضوا غمار الحرب الداخلية ، وكان السود قد أوجدوا جماعة أسموها جماعة « الاتحاد الأمين » وكانت مهمة هذه الجماعة إزعاج البيض الذين اشتركوا فى الحرب للإبقاء على العبودية وعدم المساواة ، واستغاث ضحايا هذا الإزعاج بأعضاء الجمعية ، فأغاثتهم الجمعية وبدأ « ركبان الليل » يلعبون دورهم المعروف الذى أضر بسمعة الجمعية ، وتهافت الشبان على الدخول فى الجمعية من القرى المجاورة ، وأسسوا بعد ذلك مغارات فى قراهم .

ولم يدر بخلد الأعضاء الجدد أن نشوء الجمعية فى الأصل كان لوناً من ألوان الفكاهة والمجانة والتسلية ، ولم يستطيعوا التصديق بأن الحفلات التى تقام للأعضاء والملابس العجيبة والرموز والشارات والأسرار المصطنعة ليست جميعها سوى مهزلة من المهازل وملهاة من الملاهى ، وكلما بذل الأعضاء القدامى جهد الإفهام الأعضاء الجدد أن المسألة كانت مجرد لون من

ألوان العبث والفكاهة قوى اعتقاد الأعضاء الجدد بأن فى الأمر سراً عميقاً ولغزاً دقيقاً . فلما التجأ البيض الذين استهدفوا لعدوان السود إلى الجمعية طالبين الحماية ودفع الأذى ، ساعدوا الجمعية على أن توجد لها هدفاً ترمى إلى تحقيقه ! وهكذا تكونت كتائب ركبان الليل ، وكانوا يحملون السود إلى الغابات ويوسعونهم ضرباً ، ولم تقف الجمعية عند هذا الحد ، فقد شنق أفرادها أحد الزنوج ، وقد اضطرهم هذا العمل إلى تقوية الروابط التى تربط بعضهم ببعض ، وأمعنوا بعد ذلك فى الإجرام واستساغوه ، واستولى عليهم حب الانتقام ، فأكثروا من القتل ، وبالغوا فى القسوة ، وأصبحوا لا يبالون هل أتى ضحيتهم ما يستحق من أجله القتل أو لا .

واستطاعت الجمعية أن تخيف المجرمين وتلزمهم احترام القانون ، وتكبح جماحهم ، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً ، فقد تكاثر عدد أعضائها ، وكان بين الأعضاء الجدد بعض الحمقى المتهورين والأشرار المناكيد، وسوأ هؤلاء سمعة الجمعية ، وحاكى بعض الناس أعضاء الجمعية فى تنكرهم ، فكانوا يلبسون الطرطور الأبيض والعباءة البيضاء وينتقمون من خصومهم ، وانكشاف أمر أمثال هؤلاء لم يعد إلى الجمعية سابق مكانتها ، وحاولت أن تقلم أظفار بعض أعضائها وتخضعهم للنظام ولكن

المحاولة لم تنجح ، وكان يطلق على أعضائها الرصاص فى أثناء ركوبهم فى الليل ، وكانوا يضطرون إلى مقابلة الاعتداء بمثله ، مما زاد مشكلتهم تعقيداً ، وتشجع السود وكونوا من رجالهم جيشاً ، وهزموا جماعة الكوكس كلان فى بعض النواحى رغم الألاعيب التى كان يقوم بها أعضاء الجمعية فى إرهابهم .

ولما كثرت جرائم الجمعية باءت بعداوة البيض والسود ، وحاول الحاكم براونلو أن يخمد أنفاسها ، واتخذ إجراءات شديدة لتحقيق ذلك ، وسن قانوناً بمعاقبة كل من يخالط جماعة الكلان أو يتخذ شعارها ، وأمر بمقاطعة زوجات الأعضاء المعروفين وأبنائهم ، واعتبارهم من طريدى المجتمع ، وبعد انقضاء سنتين حافلتين بالحوادث المثيرة أعلن « الساحر الأعظم » فى مارس سنة ١٨٦٨ حل جمعية الكوكلاكس كلان واستقالة الأعضاء، فحرقوا شاراتهم وملابسهم الليلية، وانتهت قصة الجمعية التى أرعبت السود وهددت الأمن العام ونازعت الدولة سلطتها .

ولكن شاء القدر أن يكون لقصة هذه الجمعية ذيل وملحق، وأن يكون لتاريخها بقية من الذكر السيئ والأثر البغيض ، فقد دبت فيها الحياة سنة ١٩١٥ . وفى يوم ١٦ أكتوبر جمع وليام جوزيف سيموندز — أحد ضباط الجيش الأمريكى السابقين —

أصدقاءه وجماعة من الشبان وقادهم إلى قمة جبل ستون فى أتلانتا — وكان هذا الرجل قد اشتغل بالتبشير بعد تركه خدمة الجيش — وأعلن عودة جمعية الكوكلاكس كلان إلى الحياة ، ولم يكن سيموندز بارعاً فى التنظيم ، وكان يرمى من وراء إحياء الجمعية إلى مقاومة نفوذ اليهود والزنوج والكاثوليك والمهاجرين المحدثين ، وفى صيف سنة ١٩١٩ كانت الجمعية قد نال منها الضعف حتى كاد يقضى عليها ، ولكن الفوضى التى تلت الحرب العالمية الأولى أمدتها بشئ من القوة ، فقد غمرت أمريكا موجة من الخوف والتوجس ، وهذا الخوف كان يغرى بعض الناس بالانضمام إلى الجمعية والتعلق بمبادئها ، وكان الجنود السود قد عادوا من فرنسا ، وقد عوملوا بها معاملة حسنة وتشبعوا بأفكار جديدة عن حقوقهم فى العالم ، وكانت نقمة بعض الأمريكيين على الرئيس ولسون وعصبة الأمم قد استحالت كراهة لليهود والكاثوليك والمهاجرين المحدثين .

واستعان سيموندز بجماعة من الذين يحسنون تنظيم الجمعيات ، وأخذ يثير نزعة التعصب القومى وينبه الأحقاد الكامنة والكراهات الهاجعة ، وكثر أعضاء الجمعية ، وأصبحت جمعية إرهابية ، وارتكب بعض أعضائها جرائم منكرة ، وكانوا يخصون باعتدائهم اليهود والكاثوليك والشيوعيين والأجانب .

وأسرف أعضاء الجمعية فى الإجرام والاعتداء وارتكاب الكبائر ، حتى استيقظت أمريكا من غفوتها ، واشتد غضب الرأى العام على الجمعية وأعضائها ، وبدأ الناس يهاجمون الأمكنة التى تعقد فيها الجمعية اجتماعاتها و يعتدون على أعضائها ، وفى آخر سنة ١٩٢٨ كانت الجمعية قد ضعف شأنها وذهبت سطوتها ، وقد قامت هذه الجمعية على أساس إثارة الحماسة الدينية والجنسية والقومية ، ولكن منظميها كانوا يريدون استغلال هذه الحماسة المثارة لمصالحهم الشخصية وأهدافهم المالية ، ويزعمون أن غايتهم أن تكون « أمريكا للأمريكيين »

جمعية الملاكمين (البكسرز)

في أصيل القرن التاسع عشر ظهرت في الصين جمعية سرية جديدة ، ولم يكن في ظهور جمعية سرية في الصين ما يدعو إلى الغرابة ، أو ما يخالف منطق الحوادث ، فالصين كانت في مختلف العصور موطناً للجمعيات السرية ، وقد عانت الصين كثيراً من سوء الحكم وطغيان الحكام ، وعجزهم وتقصيرهم ، وأثقلتها الضرائب ، واضطرت إلى أن تحارب في العصر الحديث بأسلحة العصور الوسطى ، حتى أبيح حماها وطمع فيها الطامعون واستذلها الغزاة ، وجرحوا عزتها ونالوا من إبائها ، وكان لا بد أن يجد أهلها في الجمعيات السرية منفذاً لما يجيش بنفوسهم من الحقد والبغضاء .

وقد ظهرت جمعية أى هوتيوان في ناحية كيوان بشانتونج ، وعظم إقبال الناس عليها ، وكان لها حفلاتها السرية التي يتلقى فيها الأعضاء المستجيبون تعاليمها ومبادئها ، ويتحمسون للوفاء بعهودها ، والدخول تحت أماناتها وصيانة أسرارها ، وكان كل عضو يحمل طلسماً أصفر اللون ، قد رسم عليه صورة مكونة

من إنسان وقديس وشيطان ، وحول رأسها هالات أربع ، وعلى الجسد رموز تمثل البوذا والنمر والتنين ، وفى الأركان الأربعة دعوات وابتهالات لحراس السماء وآلهة الآباء السود ، ورقى أخرى منوعة ، وتوسلات مختلفة ، وكان حاملو هذه التميمة يغشون ميادين الوغى ، معتقدين أن الموت لا يستطيع أن يغلب هذه التميمة الصفراء ، وكان هذا الاعتقاد يجعلهم يقدمون على حومات النزال غير هيابين ولا وجلين ، وكانت هذه الشجاعة التى لا تبالى شيئاً تخلق منهم مهاجمين لا يطاق لقاؤهم ولا يصبر على منازلتهم .

وكانت أسرة المانشو القابضة على زمام الأمر فى الصين قد قاومت جمعيات سرية كثيرة سابقة لهذه الجمعية ، وأبطلت سحرها ، ولم تحفل بتعاويذها وأسلمت قادتها لأيدى الجلادين ، ولكن جمعية الأى هوتيوان أو « قبضات التوافق الصالحة » كانت تختلف عن الجمعيات السابقة التى هزمتها الحكومة وبددت شملها .

كانت هذه الجمعية تمثل كراهة الشعب لهؤلاء الشياطين والقراصنة الأجانب ، الذين اقتحموا البلاد الصينية ، وكانوا ضيوفاً ثقلاء ولصوصاً ماكرين كدروا صفاء الصينيين ، وأفسدوا عليهم أمورهم ، وكانت هذه الكراهة لهؤلاء الأجانب

الوقحين والدخلاء السلابين خير شفيع للجمعية ، ولذلك ظفرت الجمعية بعطف صاحبة السمو الإمبراطورى الإمبراطورة الوالدة « تزه شى » وكانت هى الحاكمة القديرة الجالسة على عرش أسرة مانشو ، وقد استلبت السلطة من يد الإمبراطور الضعيف ، وأصبحت صاحبة الكلمة النافذة والرأى المطاع فى أمة بلغ عدد أفرادها أربعمائة مليون نسمة ، وقد عرفت الجمعية باسم جمعية الملاكمين – البكسرز – فى شتى أنحاء العالم ، وباءت بكراهة أمم كثيرة ودول قوية وحملتها على إرسال جيوشها خلال البحار وغيرت معالم تاريخ الصين .

وقد غزت اليابان الصين فى الحرب التى أعلنتها عليها واستمرت من سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٨٩٥ ، وتلا ذلك تدفق الأجانب إلى ثغور الصين بصورة أطارت حلم الصينيين واستنفدت صبرهم ، وجاوزت مدى احتمالهم ، فقد هجم عليها الإنجليز والأمريكيون والألمان والفرنسيون والروسيون هجوم الجياع على القصاع الحافلة ، وكانوا يطلبون مناطق نفوذ وامتيازات وفتح أسواق الصين لسلعهم وإرسالياتهم ، واقترحوا على الحكومة الصينية القيام بمد خطوط حديدية وبناء طرق فى أنحاء الصين المختلفة ، وضايق الصينيين طريقة هؤلاء الأجانب فى عرض طلباتهم وتعاليهم وشموخهم ، وكان

الصينيون معتزين بحضاراتهم القديمة فخورين بها ، وفى اعتقادهم أنها أسمى حضارة عرفت ، فكيف يجترئ هؤلاء الغرباء الأنكاد على محاولة فرض أساليب مدنيتهم على هؤلاء الذين قد تمكن منهم الاعتقاد بأنهم أسمى منهم مدنية وأعرق أصلاً ؟ ولم يستطع الغربيون من ناحيتهم فهم العقلية الصينية واعتزاز الصينيين بأنفسهم ، وقد كان للصينيين عقيدتهم الدينية المتأصلة ، وهى ديانة تقوم على الولاء للآباء وتقديس الأسلاف ولذا كانوا يمقتون الإرساليات الدينية أشد المقت .

وكانت الإمبراطورة الوالدة فى حيرة من أمرها ، كانت تخشى نجاح الثورة ، لأن الثورة التى تنجح فى التغلب على الأجانب قد لا تقف عند هذا الحد ، وتتخطاه إلى شن الهجوم على الأسرة الحاكمة ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه أشد كراهة للأجانب الشياطين منها لجمعية الملاكمين ، وكانت أفكار هؤلاء الأجانب عن حرية المرأة وحقوق الإنسان وما إلى ذلك من الآراء التقدمية تزعجها وتثير مخاوفها ، وقد امتلأت نفسها حقداً على الأجانب ونفوراً منهم ، لأنهم أرغموها على فتح بلادها لتجارتهم وبعثاتهم وإرسالياتهم التبشيرية ، وكان آخر ما ضايقها واستفزها من هؤلاء الأجانب أنهم فرضوا على الحكومة الصينية الامتياز الذى يسلبها حق وقوفهم أمام محاكمها ،

ويمنحهم حق المحاكمة أمام محاكمهم الخاصة .

وبالرغم من أنها شاهدت حرقهم الكنيسة الفرنسية فى بيكنج ، وفى داخلها مئات الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية والرجال والنساء والأطفال وهى راضية ومستريحة لهذا العمل فإنها مع ذلك أمسكت عن المساعدة المكشوفة والتأييد فى العلانية .

واستفحل نفوذ الجمعية فى مقاطعة شانتونج ، وكان حاكم الجمعية يوهسين المسن ، وقد رأى فى الملاكمين سلاحاً ماضياً فى محاربة الأجانب والمحافظة على عرش أسرة المانشو الذى كان يستمد منه قوته ونفوذه ، فكان الملاكمون وقد أظلتهم حمايته وشملتهم رعايته يهاجمون الإرساليات المسيحية ويوسعون رجالها قتلاً .

وفى أول يونيو سنة ١٩٠٠ كانت الدول تضع الخطط لتقوية مفوضياتها بمدينة بيكنج ، وفى ١٧ منه اضطرت الدول إلى احتلال حصون تاكى ليظل الطريق إلى تينتسن مفتوحاً ، وصحب هذا العمل طلب تنازل الإمبراطورة الوالدة — بوذا العجوز كما كانوا يدعونها — عن العرش إن لم تحد من نشاط الملاكمين .

وقد عقدت السيدة الغاضبة مجلسها الاستشارى الأعلى ، والرجل الوحيد الذى اجترأ على التشكيك فى حكمة مقاومة الدول

طرد من الاجتماع وقنع بنجاة رأسه ، وكان رد « بوذا العجوز » أن القضاء على جماعة الملاكمين بمثابة قطع الإنسان جناحيه ، وأصدرت أمرها بقتل كل الشياطين الأجانب وضم جنودها إلى صفوف الملاكمين .

واشتعلت الثورة فى نواحى الصين ، وحوصرت مفوضيات الدول ووقفت على الأبواب ألوف من الجنود المسلحة تسليحاً ناقصاً ، وإلى جانبهم الملاكمون حاملين تمائمهم الواقية ، وتلقى أحد الجنود التابعة لأسرة مانشو الأمر بإطلاق النار على الأجانب جميعهم ، وأصابت أولى طلقاته وزير ألمانيا وسكرتيره ، وعذب رجال الإرساليات فى جميع أنحاء الصين وقتلوا وحرقوا دون نظر إلى جنسيتهم أو سنهم أو نوعهم أو طائفتهم ، وقتل فى بيكنج وحدها تسعمائة من الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية ، بدون محاكمة ، وعذب ألوف من المسيحيين فى مقاطعة أخرى وقتلوا .

وانتقل الحاكم يوهسين نصير الملاكمين من شانتونج إلى شانشى وأطلق عليه هناك لقب « نيرون الصينى » ، وقد أمر بإحضار أفراد الإرساليات جميعاً إلى ساحة الحاكم ليكونوا تحت حمايته ، ولم يكن لهم فى الأمر خيار ، وأحضر الرجال والنساء والأطفال إلى الساحة ، وقد أحاط بهم الجنود ، وظهر الحاكم

وسأل بعضهم من أين جاءوا ، فقال فريق منهم إنهم جاءوا من فرنسا ، وفريق آخر قالوا إنهم جاءوا من إنجلترا ، ومنهم من قالوا إنهم قدموا من ألمانيا ، وابتسم الحاكم ابتسامة وحشية غادرة ، والتفت إلى جنوده وصاح بهم قائلاً : « اقتلوهم جميعاً » فمزقهم الجنود إرباً إرباً

وكانت « بوذا العجوز » تمنح مكافأة مالية لقتلة الأجانب الهمج المستوحشين ، وكبر ذلك على أقدم مستشاريها چونج لو ، وساءه أن تغدق الإمبراطورة الوالدة المال على قتلة النساء والأطفال ، وقدر ما سيكون لذلك من وقع سيئ فى نفوس الأمم الأوربية ، وكانت جميعها جبهة واحدة ضد الصين ، وتجمع الغرباء من جميع الأمم حول المفوضية البريطانية فى بيكنج ، وحارب الفرنسيون والألمان والروس واليابانيون جنباً إلى جنب لحمايتها تحت قيادة السير كلود ماكدونالد الوزير البريطانى ، وجاهدت فرقة إنقاذ مكونة من بحارة تحت قيادة السير إدوارد سيمور لتشق طريقها من تينتسن بين حشود من الجنود الصينيين والملاكمين ، واعترضتها عوائق جمة وأنقذها من الإبادة استيلاؤها على إحدى دور الأسلحة الصينية ، وظلت هذه الفرقة تكافح الجنود الصينيين والملاكمين بالأسلحة الصينية مدة شهرين ، صابرة على الحصار مترقبة

النجدة ، وتدفقت الجيوش من الهند وألمانيا وأمريكا ، ومن كل دولة متحضرة على وجه التقريب ، وكان الملاكمون قد خلعوا نقاب السرية ، وعملوا فى العلانية ، واستطارت صوابهم إراقة الدماء ، وشجعهم الاعتقاد بتمائمهم الواقية على الإقدام ومحاولة قطع مواصلات القوات الزاحفة ، ولكن لم يكن لهم قبل بصد الجموع السيالة والقوات الهاجمة ، ورفع الحصار المضروب ، وانهارت المقاومة ، وحصدت المدافع الثقيلة حشود الملاكمين حصداً ، وتركت فى صفوفهم ثغرات واسعة ، ولم تغن عنهم تمائمهم ، واستولت سفن الحلفاء على تينتسن . ولما دخل الحلفاء المدينة وقد اشتعلت فيها النيران بدأ السلب والنهب ، ولم تنج منهما بيكنج ، وكشفت الجيوش المهاجمة فظائع الملاكمين فعاملت أسراهم بالمثل ، ونكلت بهم تنكيلاً فظيعاً .

وفى يوم ٥ أغسطس سنة ١٩٠٠ فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، نهضت الإمبراطورة الوالدة وارتدت ملابسها بعناية واستعدت للفرار مع الإمبراطور ، وفى رفقة ثلاثة من أعضاء مجلسها الأعلى الاستشارى ظلوا موالين لها ، وكان الشياطين الأجانب قد دخلوا المدينة ، وعسكر جنودهم فى «معبد السماء» ، وكان الإمبراطور يرغب فى البقاء للتفاهم معهم ، واجترأت

زوجته الحظية على أن تركع أمام الإمبراطورة العجوز الحيزبون القاسية وتتوسل إليها أن تهدى الإمبراطور إلى سبيل الرشد وطريق العقل ، فما كان من العجوز الدويهية إلا أن أشارت إلى كبير الخصيان وأمرته أن يحمل الزوجة البائسة ويلقيها فى قعر البئر الكبيرة فى ساحة القصر رغم معارضة الإمبراطور الشديدة الحارة ، وفرت بعد ذلك الأسرة المالكة فراراً معيباً مزرياً من « بوابة النصر » .

وكان ما أراده الشياطين الأجانب ، وأرغمت الإمبراطورة على قص جناحيها ، وذلك بالقضاء على جمعية الملاكمين التى كانت تؤثرها وتحبوها بعطفها وتشجيعها ، وأمر أحد أمراء الصين بأن يبرح بلاده ويذهب إلى القيصر ليقدم له الاعتذار عن قتل وزيره ، ويقال إنه قد أرسل بدلاً من الأمير رجل من الطبقة الدنية ، ليقدم الاعتذار ، وأنه انتحر بعد عودته ، ولكن — بغض النظر عن هذه الشائعة — فإن الاعتذار قد قدّم ، وجمعية الملاكمين أخمدت حركتها ، وظلت الإمبراطورة الحيزبون على عرش الصين عشر سنوات أخرى لترى تغيرات أعمق مدى وأبعد أثراً .

وطلبت الدول من الإمبراطورة طلبات كثيرة ، وكان أشدها وقعاً فى نفسها وأقواها إشعالا لنيران حقدها طلب إعدام زعماء

الملاكمين ، وقد وافقت فى النهاية على هذا الطلب ، ولما علم كثيرون من هؤلاء الزعماء أن الإمبراطورة قد تخلت عنهم ، وأقرت الأمر بإعدامهم آثروا الانتحار ، وقد اكتفى الحاكم يوهسين – الذى لقب نيرون الصين – بأن يقول « لقد قتلت الغير والآن جاء دورى » ولقى الموت فى شجاعة .

وبموته انقطع الرجاء من الجمعية ، وجر عليها العفاء أذياله .

ثبت المراجع

Famous Secret Societies. *By Heron J. Lepper.*
Secret Societies Old & New. *By Herbert Vivian.*
The Russian People. *By Maurie Baring.*
Secret Societies. *By D.W. Pike.*
Abdul Hamid, The Shadow of God. *By Alma Wittlin*
The Life of Abdul Hamid. *By Sir Edwin Pears.*
China Struggles For Unity. *By J.M.D. Pringle.*
China at the Crossroads. *By Peng-Chun Chang.*

تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة
للأستاذ محمد عبد الله عنان

دولة النزارية
للأستاذ طه أحمد شرف

تراجم إسلامية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

عبيد الله المهدى
للأستاذين حسن إبراهيم حسن و طه أحمد شرف

قصة الحضارة — الجزء الرابع الخاص بالشرق الأقصى ،
تأليف « ول ديرانت » وترجمة الأستاذ محمد بدران

ما هنالك لإبراهيم المويلحى

تاريخ أوربا فى العصر الحديث
تأليف فيشر ، وترجمة الأستاذين أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع